The Elemenuts af the vision of the Death in the mukluk poetry

عناصر صورة الموت في الشِّعْر المملوكي (العناصر الحسيّة أُنْمُوْذَجَاً)

م.م. علي صاحب عيسى
كلية التربية الأساسية / جامعة ميسان

مُلخص البحث:

يتناول هذا البحث موضوع (**عناصر صورة الموت في الشِّعْر المملوكي (العناصر الحسيّة أُنْمُوْذَجَاً)**)، وتُعدّ هذه الدراسة حلقة من حلقات البحث في شعر العصر المملوكي، فما زال الأدب العربي في عصر المماليك يشكو ندرة الدراسات وقلة الأبحاث، وما الدراسات التي صدرت إلا لمحات خاطفة أو نظرات عابرة لم تعط الصّورة الحقيقية للأدب العربي في هذا العصر.

وبالعودة لموضوع البحث، فالموت ظاهرة إنسانية وجدت مع الحياة نفسها ولكن الموقف منه يتخذ أشكالاً شتى تبعاً لعوامل عديدة بيئية ونفسية. ولعل استئثار الشعراء جلهم بتصوير هذه الظاهرة إنما كان يتضمن إدراكاً باطناً لهذه الخاتمة التي تلاحقهم.

وهذا البحث لا يبتغي الشّروع في مختلف الدراسات الكثيرة التي تناولت مفهوم الموت فحسب؛ إذ تحددت الدراسة في تناول عناصر صورة الموت في الشِّعْر المملوكي، من خلال الوقوف عند عناصر الموت الحسيّة، وما فيها من نسيج متماسك من الكلمات والألفاظ. قام البحث على مهاد نظري، وخمسة محاور وهي:

1- الفَقْدُ. 2.الفَقْر. 3.القَبْرُ. 4. الشَّيْب. 5. الخَراب.

Abstract:

This research deals with the subject of (an image of death in the hair Mamluk elements (sensory elements model)), and the longer this study cycle of seminars in the poetry of the Mamluk era, what Arab literature is still in the era of the Mamluks complain about the scarcity of studies and the lack of research and studies that have been issued only a brief profiles or transient reviews true picture of Arab literature has not given in this day and age. Returning to the subject of research, death is a human phenomenon found with life itself but the attitude it takes a variety of forms depending on many factors, environmental and psychological. Perhaps the monopoly of poets mostly filmed this phenomenon but it includes inwardly aware of this conclusion, which pursued.

This research is not who wants to proceed in many different studies that have only dealt with the concept of death; as defined in the study dealt with the elements of the image of death in the hair Mamluk, by standing at the sensory elements of death, and what they coherent tapestry of words and speaking. The research on my mulch, and five axes, namely:

1. loss. 2.fiqr. 3.alcypr. 4. graying. 5. ruin.

المقدمة :

الحمدُ لله رب العالمين، الذي بالأدب كمّل فضيلة الإنسان، أحمده على مجموع فضله، وأشكره على جزيل نعمه، وأصلي وأسلم على فخر الرسل وهادي السبل محمد الصادق الأمين، وعلى آله وصحبه، وَمَن والاه بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد...

الموت نهاية كل حيٍّ مهما طال بهِ البقاء، ولعله الحقيقة الوحيدة التي اتفقت عليها الناس جميعاً على اختلاف ألوانهم وأعراقهم ومعتقداتهم وأجناسهم وديانَاتهم لذلك نجد الناس جميعاً يفكرون بالموت بشكل ما، وإن اختلفت نظراتهم إليه.

وحينما يأتي الموت لإنسان فهو لا يميز بين غني وفقير، بين عالم أو جاهل، بين شاب أو شيخ، رجل أو امرأة ... إلخ. وقد أخذ الموت جدلاً بين الناس، وكان مورد قلق الإنسانية الأكبر.

وفي هذا الصدد يُعدّ تصوير الموت قيمة وجودية رائعة، والصّورة الشّعرية عنصر أساسي في بناء الشعر؛ إذ لها أهميتها في نقل تجربة الشاعر نقلاً صادقاً، فتعددت صور الموت عند الشعراء، بسبب تعدد انفعالات الشعراء تجاه الموت، وهنا تأتي الصورة الشّعرية لتعبّر عن تلك المشاعر أو الانفعالات، من خلال التأثير في المتلّقي، ومن أجل تقديم صور حسية مؤثرة في النفس البشرية، أستعمل الشعراء البيان والبديع في شعر الموت.

هذا وقد حفلت عناصر صورة الموت بألفاظٍ وتعبيراتٍ، استقاها الشعراء من الموروث القديم، مما أضفت قيمة فنية على أشعارهم.

والشّاعر المملوكي وقف عند هذه العناصر الحسيّة، وأخذ يضيف إليها من ثراء فكرهِ ورهافة حسه تأملات في هذه الصّور.

إن موضوع الموت في شعر المماليك جدير بالدراسة؛ إذ بدأ واضحاً بجلاء في شعرهم، وبكونه خير أداة معبرة عن طبيعة عصرهم، فهو عصر مضطرب يعج بالمتناقضات ويبعث على القلق والرهبة والطمع والرغبة.

لذا فقد جاء هذا البحث ليميط اللثام عن عصرٍ فيه جوانب مشرقة وقبسات متوهجة جديرة بالرعاية والعناية من لدن الدارسين لإبرازها وربطها بالحلقات الذهبية السالفة في تراثنا الشعري الضخم.

بَيْدَ أنّ الباحث يعتمد في هذه الدراسة على المنهج التحليلي، محاولاً إبراز مواقف الشعراء من حقيقة الموت، مع استشفاف الملامح الفنية في صورة الموت.

ويقصد الباحث بالفَقْد ما يترتب من آثار على الفَقْد ، أما الفَقْر فهو من عناصر الموت الحسيّة؛ لأنه يقود إلى الفاقة والعوز، وهذا بحد ذاته موت معنوي ان لم يؤدي إلى الموت الجسدي، أما القَبْر ونعني بهِ الألفاظ الدالة على الموت، ويمثل مرحلة أخرى للميت بعد موته ، وقد جاء الشيب بمعنى المعادل الموضوعي لموت الإنسان، وهو نذير الموت، وفي القرآن الكريم، قال تعالى:**{وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ}(الحج:5)**، وقد ورد في الموروث العربي القديم أيضاً، أما الخَراب فهو المصطلح الأوسع للموت؛ لأن الخراب موت كل شيء، موت الإنسان وعناصر الطبيعة، وأرى أن التماسك بين هذه العناصر قد حصل، بجامع أنها تشي كلها برائحة الموت المعنوي والجسدي معاً، فالتماسك بين هذه العناصر يؤدي إلى صورة الموت، وهو يجمعها الموت والفناء.

مهاد نظري:

الموت صنو الحياة، وقرينها الأزلي، وقد جاء في كلام العرب يُطْلَقُ على السُّكون؛ يقال: ماتت الريحُ أَي سَكَنَتْ. قال: والمَوْتُ يقع على أنواع بحسب أنواع الحياة: فمنها ما هو بإزاء القوّة النامية الموجودةِ في الحَيوانِ والنبات، كقوله تعالى:**{يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا}**[الروم /19]، ومنها زوالُ القُوّة الحسيّة، كقوله تعالى:**{ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا}**[مريم/23] ومنها زوالُ القُوّة العَاملة، وهي الجهالة، كقوله تعالى:**{أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ ...}**[الانعام/122]، ومنها الحُزنُ، والخَوْفُ، المُكدِّرُ للحياة، كقوله تعالى:**{وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ}**[ابراهيم/17]، ومنها المَنام، كقوله، تعالى:**{وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا}**[الزمر/42] وقد قيل: المنام: الموتُ الخفيفُ، والموتُ: النوم الثقيل؛ وقد يُستعار الموتُ للأحوال الشاقةِ: كالفَقْر والذُّلّ والسُّؤالِ والهَرَمُ والمعصية، وغير ذلك...[1].

وقد قيل في الموت إن " الموت موتان: موت إرادي، وموت طبيعي، وكذلك الحياة حياتان: حياة إرادية، وحياة طبيعية. عنوا بالموت الإرادي اماتة الشهوات، وترك التعرض لها، وعنوا بالموت الطبيعي مفارقة النفس البدن ، وعنوا بالحياة الإرادية ما يسعى له الإنسان في حياته الدنيا من المآكل، والمشارب والشهوات، وبالحياة الطبيعية بقاء النفس السرمدي في الغبطة الأبدية بما تستفيده من العلوم الحقيقية، وتبرأ به من الجهل..." [2].

وبطبيعة الحال فإن الموت النهاية لكل حي مهما طال به البقاء؛ بل هو الحقيقة التي يتفق عليها الناس جميعاً، على الرغم من الاختلاف في عقائدهم ومذاهبهم، والاختلاف أيضاً على ما بعد الحياة الدنيا من حياة أخروية أو عدم، فالناس جميعاً يفكرون بالموت بشكل ما؛ لكن طريقة تفكيرهم ونظراتهم إليه مختلفة[3].

لذلك فالموت لابد منه؛ لأنه شيء حتمي،"وما الموت إلا حد للحياة، هو الصورة التي تلبسها الحياة وتحطمها من بعد"[4] ، أو الموت نهاية لحياة دنيا الإنسان، فهو لا يمكن أن يستعيدها مثلما كانت سابقة أو مشابهة بما كانت[5].

فالإنسان يرهب من الموت ويطلب الحياة؛ لأن الحياة لديه تمثل الاستمرارية في البقاء، فهو يتعلق بها ويريد أن يحيا أبداً[6].

إنّ كل إنسان يعلم أن الموت حق وأنه واقع لا محالة؛ لكن النظرة إلى الموت هي التي تحّدد النظرة إلى الحياة؛ لأن الأمور تعرف بعواقبها، فالموت"جزء من الحياة وانه ليس مضاداً لها، فلكي تكون النظرة إلى الموت صحيحة يجب أن نجعل الموت جزءاً من الحياة"[7].

هذا، وينماز الإنسان بحالة الخوف من المجهول أو القلق من الموت، فهو يدرك تماماً أن وجوده سوف يفنى ويموت عاجلاً أو آجلاً دون معرفة الزمان والمكان، وقد عرف(**تمبلر**) قلق الموت بأنه" حالة انفعالية غير سارة يعجل بها تأمل الفرد في وفاته هو. كما يعرفه(**هولتر**) بقوله: إنه استجابة انفعالية تتضمن مشاعر ذاتية من عدم السرور والانشغال المعتمد على تأمل أو توقع أي مظهر من المظاهر العديدة المرتبطة بالموت"[8].

لذا فإن قلق الإنسان من الموت صار قلقاً لا سبب له سوى الوجود نفسه، وهو المرض الميتافزيقي الذي لا علاج له، بل هو لعنة التناهي التي تحل بالإنسان منذ الولادة، وكانما كتب عليه الموت لمجرد أنه ولد[9].

إذاً، ما دام الموت حتماً يبقى اللغز الأكثر قلقاً وحيرة الذي شغل ذهن الإنسان، بمعنى" إن الموت سر لا يكاد ينفصل عن صميم وجودنا ما دام وجودنا وجوداً زمانياً متناهياً يسير حتماً نحو الفناء. وعلى الرغم من أن الموت هو الحقيقة الوحيدة التي لا يرقى إليها الشك، إلا أنه في الوقت نفسه السر الوحيد الذي هيهات للعقل البشري أن يتمكن يوماً من إماطة اللثام عنه"[10].

وليس من شك في أنَّ الشاعر المملوكي قد ركز على تصوير الموت في شعره، فجاءت صوره تستمد بشكل عام من مظهر الحياة، ولهذا فالصورة هي أداة الشعر ووسيلة التعبير، فضلاً عن ذلك فالصورة عنصراً مهماً في عملية الخلق الفني الشعري، وهي الأداة التي تتربع على سائر الأدوات الشعرية، والصورة "تشكيل لغوي، يكّونها خيال الفنان من معطيات متعددة، يقف العالم المحسوس في مقدمتها. فأغلب الصور مستمدة من الحواس، إلى جانب ما لا يمكن إغفاله من الصور النفسية والعقلية وإن كانت لا تأتي بكثرة الصور الحسيّة، أو يقدمها الشاعر أحياناً كثيرة في صور حسية"[11].

هذا، وقد تابع شعراء العصر المملوكي أسلافهم في صورة الموت؛ لأن مشاعر الناس عند الموت متقاربة في كل زمان ومكان، والشعراء يجسدون هذه المشاعر في صورة موحية مؤثرة، وكان من الطبيعي أن يقف الشاعر من الموت موقف المعتبر المتألّم والمتأمّل في آنٍ، بَيْدَ أنَّ عناصر صورة الموت كانت مرآة تعكس الواقع وجوانبه الاجتماعية والنفسية والفكرية والسياسية، فهي تؤدي أغراضاً مختلفة، منها الدلالة على وضع الشاعر ونفسيته، ومنها الدلالة على المجتمع والعصر، ومنها انتقاد المظاهر الخاطئة والتنبيه عليها، وإظهار عبثية الحياة في عصر اختلطت فيه الأمور وشاعت المظالم وأشتد الفقر.

وقد اقتصر البحث على العناصر الحسيّة، الأكثر ظهوراً في شعر المماليك، وهي:

- الفَقْـــــــــدُ:

فقد: الفَقْدُ: فِقْدانُ الشيءِ. ويقال: امرأةٌ فاقِدةٌ: ماتَ وَلَدُها أو حَميمُها. وأفْقَدَه اللهُ كلَّ حَميمٍ. ومات غيرَ فَقِيدٍ ولا حميدٍ، وغيرَ مفقُودٍ ومحمودٍ أي غيرِ مُكْتَرِثٍ لفَقْدِه[12] . وتَفَاقَدَ القومُ، أي فَقَدَ بعضُهُم بعضاً[13]. والفاقِدُ من النساءِ: التي يموتُ زَوْجُها أَو ولدُها أَو حميمها. أَبو عبيد: امرأَة فاقِدٌ وهي الثكول[14]. ويقال: ظَبْيَةٌ فَاقِدٌ، أَو بقرةٌ فَاقِدٌ: أَكلَ السّبُعُ ولدَها. (الفَقِيدُ): المَفْقُودُ[15].

وليس من شك في أنَّ الموت هو الفَقْد الصَّرَع نهاية الحياة؛ إذ "يسترق الخطى كاللص تحت جنح الليل.. ويمشي على رؤوسنا فتبيض له شعراتنا.. شعرة.. شعرة.. دون أن نحس.. لأن دبيبه وهو يمشي هو دبيب الحياة نفسها"[16].

إن الذي لم يمت، لا يمكن أن يكون قد عاش، ومعنى هذا "أن الحي لا يكون حياً، إلا بشرط أن يكون فانياً"[17].

ولو نَظَر الناس مليّاً في دنياهم، ومباهجها الفانية والموت، لما أقبلوا بحرصٍ شديد على الحياة[18].

وتأسيساً على ذلك، فالموت أمر يقيني وليس مشكوكاً فيه، وأن استبعده الناس وغفلوا عنه، فضلاً عن ذلك باب من أبواب الطاعة، من حيث كونه باب الآخرة، وفي الآخرة الثواب على الطاعة والعقاب على المعصية.

من هنا كان للشاعر المملوكي أن يقف عند عناصر صورة الموت، ومنها صورة الفَقْد المادية، فضلاً عن ذلك كون الشّاعر شاهد عصره؛ إذ ينقل من خلال ألفاظه وأفكاره لصورة عصره، بكل ما يضم من جوانب سياسية ودينية وفكرية وثقافية.

ومن صور الفَقْد الحسيّة التي ذكرها الشّاعر المملوكي، هي تلك الصّورة التي رسمها بأدواته الشِّعرية سيف الدين المُشِدَ(ت 656هـ)، لمَّا فَقْد ابن عمه نور الدين بن فخر الدين عثمان، بقوله:

[السريع]

أظْلَمَـــتْ الأيَّـــامُ فـــي نـــاظِري ... لحـــــادِثٍ قـــــد كـــــان مَقْـــــدُورا
وكيـــف لا تُظلِـــمُ فـــي عَـــينِ مـــنْ ... إنســـــانه قـــــد فـــــارقَ النُّـــــورا[19]

وصوَّر الصّاحب شرف الدّين الأنصاري(ت 662هـ)، فَقْد الأخ؛ "ذلك أن الأخ مرتبط بأخيه روحياً وعاطفياً، فقد تربيا تحت سقف واحد، وأكلا من زاد واحد، وتقاسما السعادة والشقاء"[20].

قال الصّاحب شرف الدين الأنصاري: [المنسرح]

جَهْـــدُ فُـــؤادي عَلَيـــكَ أنْ يَجْـــزَعْ ... وحَـــظّ عَيْنـــي لَـــدَيْكَ أنْ تَـــدْمَعْ
وتلـــكَ حـــالٌ أُخـــيّ مُسِـــيئةٌ ... إذْ لا تَـــرُدُّ الـــرَّدَى ولا تَـــرْدَعْ
تُوحِشُـــني بَعْـــدَكَ الـــدِّيارُ كمـــا ... يُـــؤْنسُ نفســـي مَحلُّـــكَ البَلْقَـــعْ[21]

وما الحبّ إلاَّ دموع وفَقْد، وهي صورة أخرى من صور الفَقْد، لا يستطيع المحب أن يخفي الهوى، فهو الموت حين يفْقَد الحب، والعيش حين الوصال.

قال شهاب الدين التلَّعفريّ(ت675هـ): [الكامل]

مـــا المـــوتُ إلاّ حَـــيْنَ أفْقِـــدُهُ ... والعَـــيْشُ إلاّ حِـــينَ أنظُـــرُهُ[22]

ولفَقْد الإمام محيي الدين النووي (ت 676هـ)، صوَّر الشّاعر المملوكي هول ذلك المصاب، ونبأ موته الذي جاء به النَّاعِي، فضلاً عن تعداد صفاته وفضائله.

قال ابن الظَّهير الإربلي(ت 677هـ): [الكامل]

نعـــم الموفـــق كـــان فـــي أقوالـــه ... وفعالـــــه وموفـــــق الأتبـــــاعِ
فقدتـــــه والآمـــــال فيـــــه فســـيحة ... إذ كـــــان خيـــــر ذخيـــــرة ومتـــــاعِ
بـــــات لفقـــــد حياتِـــــه فـــــي وحشـــــةٍ ... وعلـــــى الأســـــى محنيَّـــــة الأضـــــلاعِ[23]

ويقف الشّاعر المملوكي عند فَقْد الولد، مصوراً حرارة القلب التي لن تنطفي.
قال أبو الحسين الجزّار(ت 679هـ): [البسيط]

مـــن بَعْـــد فَقْـــدك قـــل لـــي كيـــف أَصْـــطبرُ والحـــــزنُ عنـــــدي لا يُبْقـــــى ولا يَـــــذَرُ
يـــا مـــــن أقـــام بجنَّـــات النعـــيم وفـــي قلبـــي عليـــه لهيـــبُ النـــار يَسْـــتَعرُ[24]

ومن هذه الصّور لفَقْد المرْء وقد ناحت عليه شجر الأراك مع الحَمام وحزنت، قول مُجير الدين بن تميم(ت 684هـ):
[الكامل]

نـــاحَ الحمـــامُ علـــى قَوامـــكَ إذ ثَـــوَى تحـــتَ التـــرابِ وقـــد حـــواهُ ضـــريحُ
ولفقْـــدِ قـــدِّكَ قـــد غـــدا مـــن حزنـــهِ شـــجرُ الأَراكِ مـــع الحَمـــامِ ينـــوحُ[25]

وفي فَقْد الملك الصالح بيبرس، يصوّر الشّاعر تلك الفجيعة التي حلّت بالمسلمين؛ إذ بكى عليه المسلمين قاطبة؛ بل الدنيا في غيبته قد ذهلت وإصابها الدهشة.
قال ابن النَّقِيْب الفقيسيّ(ت 687 هـ): [الكامل]

فعليـــكَ يبكـــي المســـلمونَ ويأســـف الـــ إســـــلامُ والـــــدُّنيا لِفقْـــــدِكَ تـــــذهلُ
مـــا لـــي أراكَ أطَلْـــتَ غيبـــةَ غائـــبٍ مـــا يُرتَجَـــى منـــهُ كتـــابٌ يُرسَـــلُ[26]

وفي انتقال صاحب الشفاعة، وسيد الكونين، نبيّ الساعة، والرسول الحبيب ﷺ، إلى الرفيق الأعلى، يصوّر الشّاعر المملوكي فَقْده، ذاكراً مكانته الغالية في أعماق النفس، واصفاً شدة حزنه وتأسفه على فَقْده.
قال البُوصيري(ت 696 هـ): [المديد]

يـــا حَبيبـــاً وَشَـــفِيعاً مُطاعـــاً حُسْـــبُنَا أَنَّ إِليـــك الإِيابـــا
لَـــمْ نَقُـــلْ فيـــكَ مقـــالَ النَّصـــارَى إِذْ أَضَـــلُّوا فـــي المســـيح الصَّـــوابا[27]

وعند فَقْد ملك حماة الملك المنصور، والبلاد الإسلامية تحت إمرة السلطان المملوكي المنصور قلاوون، صوّر الشعراء فَقْد الملك المنصور بالجبل الشاهق الذي يهوي على الأرض، مصورين صفاته النبيلة وتعداد خصاله، ومخاطبين ملوك الخافقين بالبكاء على مصابه، مع بيان حالهم لحظة توديعهم للملك، الذي تخطفه الموت فقد بكته السيوف وناحت عليه السمهريات.
قال شهاب الدين العزازي(ت 710 هـ): [الطويل]

هـــوَى جبـــلُ الحلـــمِ الـــذي كـــانَ شـــاهقاً وشِـــعبُ العُلـــى والمكرمـــاتِ تَصـــدَّعا
لِيَبْـــكِ ملـــوكُ الخـــافِقَينِ مُصـــابَهُ فقـــد كـــان أرواهُـــمْ غَمامـــاً وأمرعـــا
أضـــاعَ بنـــي الآمـــالِ مـــوتُ محمَّـــدٍ علـــى أنَّ دهـــراً غالَـــه كـــان أضـــيْعا
بكتْـــهُ السُّـــيوفُ المشـــرَفيَّاتُ قُطّعـــاً وناحـــتْ عليـــهِ السَّـــمْهريَّاتُ شُـــرَّعا
أيـــا مـــوتُ أيتمـــتَ العُفـــاةَ بفقـــدهِ وغـــادرتَ ربـــعَ الأريحيَّـــةِ بَلْقعـــا؟[28]

أما صفي الدين الحلّي(ت 750 هـ)، فقد ذرفت عيونه لفَقْد خاله جلال الدين عبد الله بن حمزة بن محاسن؛ إذ كان حصناً مانعاً يلتجؤون به احترازاً من العدى، فضلاً عن أنه كعبة في أيام حياته يُلاذ بها، بقوله:

[الطويل]

شـــموسٌ أرانـــا المـــوتُ فـــي التُّـــربِ كسـفَها ومـــا خلـــتُ أن الشـــمس فـــي التـــربِ تكسِـــفُ
لقـــد كُنـــتَ حِصـــناً مانعـــاً بـــكَ نَلتَجـــي حِـــذارَ العِـــدى واليـــومَ باســـمِك نحلِـــفُ
فـــإن كنـــتَ فـــي أيّـــامِ عَيشِـــكَ كعبَـــةً يُـــلاذُ بهـــا فـــاليَومَ ذكـــرُك مُصـــحَفُ
وأنـــزِفُ مـــن حزنـــي دَمـــي لا مَـــدامعي وأَيُّ دَمٍ أبقَيـــتَ فـــيّ فيَنـــزِفُ[29]

وكذلك صوّر صلاح الدين خليل بن أيبك الصّفدي(ت 764 هـ)، صورة فَقْد الصديق، واصفاً حزنه لحظة فراقه وتوديعه، قائلاً:

[مجزوء الرجز]

يـــــا راحـــــلاً عنـــــا وقـــــد أســـــر الحشـــــا منـــــا وعَنَّـــــى
لله كـــــم قـــــد عـــــزّ فيـــــك عـــــزاً وحُزنـــــاً فيـــــك حُزنـــــا[30]

وقد يتحدث الشّاعر في العصر المملوكي عن فَقْد الزوجة، مصوراً تلك المصيبة على النفس؛ إذ ماتت ودفنت في التراب كالذهب الخالص، باكياً على الأيام وعلى مصيرها في باطن الأرض، متوجهاً بالشكوى يوم فَقْدها إلى الخالق الباري عزّ وجل.

[الطويل]

قال ابن نباتة المصري(ت 768 هـ):

وكيـــف أعـــاني ســـجعة أو قرينـــة وقـــد فقـــدت منـــي أجـــلّ القـــرائن
ثـــوت فـــي مهـــاوي التـــرب كـــالتبر خالصـــاً فحققـــت أن التـــرب بعـــض المعـــادن
دفنتـــك يـــا شـــخص الحبيـــب وقـــد بـــدا لعينـــك حـــالي قلـــت إنـــك دافنـــي
كلانـــا علـــى الأيـــام بـــاكٍ وإنمـــا أشـــدّ الـــبلا بـــين الحشـــا كـــلّ كـــامن
إلـــى الله أشـــكو يـــوم فقـــدك أنـــه علـــيّ ليـــوم الحشـــر يـــومُ التغـــابن[31]

ومن صور الفَقْد الحسيّة ما قاله عويس العالية (ت 807هـ)؛ إذ صوّر فَقْد القاضي بدر الدين بن فضل الله كاتب السر، وأخيه القاضي عزّ الدين حمزة اللذين وافتهم المنية عام (797هـ)، بقوله:

[الوافر]

قضـــى البـــدر بـــن فضـــل الله نحبـــا ومـــات أخـــوه حمـــزة بعـــد شـــهر
فـــلا تعجـــب لـــذي الأجلـــين يومـــا فحمـــزة مـــات حقّـــاً بعـــد بـــدر[32]

وفي عام (798هـ) فَقْد ابن حجر العسقلاني(ت 852 هـ) شقيقته (ست الرّكب)؛ لذا فقد ذرفت الدموع بغزارة عليها، وهو يصوّر خصائلها الحميدة، واصفاً ما تتماز به من صفات، ويلحظ أن ابن حجر يتكئ على تكرار المفردة (بكيتُ) أكثر من مرة بشكل رأسي متتالي، ليؤكد حالة الحزن الشديد التي يكابدها؛ إذ يقول:

[الطويل]

بَكَيـــتُ عَلَـــى حِلـــمٍ وَعِلـــمٍ وَعِفَّـــةٍ تُقَـــارِنُ مَـــع عِـــزّ الهُـــدَى هَـــزَّةَ الطّـــرفِ
بَكَيـــتُ عَلَـــى الغُصـــنِ الَّـــذي اجتُـــث اصـــلُهُ وَلَـــم اجـــنِ مـــن أزهَـــارِهِ ثَمَـــرَ القَطـــفِ
بَكَيـــتُ عَلَـــى البَـــدر المُنَقَّـــلِ للنّـــوى ولكنَّـــهُ مَـــا زَالَ فـــي القَلـــبِ وَالطَّـــرفِ[33]

وقد صوّر الشهاب الحجازي (ت 875هـ) صورة فَقْد ابن حجر العسقلاني؛ إذ كان عالماً ناظماً ناشراً محدّثاً ماهراً في الحديث متواضعاً كثير البر والصدقات، مصوراً المرْء رهينة بيد القدر الذي فتح أبوابه ليستقبل هذه الجموع السائرة دوماً في طريق الفناء، فالموت واقعٌ لا محاله، عاجلاً أو آجلاً، والمرْء مهما طال به العمر لا بد أن تدركه المنون، بقوله:

[الكامل]

كـــلُّ البريّـــةِ للمنيَّـــةِ صَـــائِرهْ وقَفُـــوا لهـــا شـــيئاً فشـــيئاً ســـائِرهْ
والـــنَّفْسُ إنْ رضـــيتْ بِـــذا رَبَحـــتْ وإنْ لَـــمْ تـــرضَ كانـــت عنـــد ذلـــك خاســـرَهْ
وأنـــا الَّـــذِي راضٍ بأحكـــام مَضَـــتْ عَـــنْ ربِّنَـــا البـــرّ المهَـــيْمِن صـــادِرَهْ
لكـــنْ ســـئمتُ العـــيْشَ مِـــن بعـــد الَّـــذِي قـــد خلّـــفَ الأفكـــارَ مِنّـــا حـــائرهْ
قاضِـــي القضـــاة العَســـقلانيّ الّـــذِي لـــمْ ترْفَـــع الـــدنْيا خصـــيماً نـــاظَرَهْ[34]

وفي السياق نفسه فَقْد ابن حجر العسقلاني، فقد صوّر الشهاب المنصوري(ت 886 هـ) ذلك المصاب؛ إذ يقول:

[مجزوء الرجز]

قَـــــدْ بَكَـــــتِ السُّـــــحْبُ عَلَـــــى ... قَاضِـــــي القُضَـــــاةِ بـــــالمطَرْ
وانهـــــــدم الـــــــرّكْنُ الّـــــــذِي ... كـــــانَ مَشِـــــيداً مـــــن حَجَـــــرْ[35]

وقال ابن مليك الحموي(ت 917 هـ) يصوّر فقدان العلامة شمس الدين محمد البلاطنسي مفتي دمشق، فقد أبكاه بدموع غزيرة وأكثر عليه العويل والنواح، ووصفه بالجود ومصباح العلوم، وشبهه بالشمس في السماء لكن التراب قد حواه، قائلاً:

[الوافر]

فـــــؤادٌ قـــــد أضـــــرَّ بـــــه التنـــــائي ... وعـــــينٌ لا تقـــــرُّ مـــــن البكـــــاءِ
فيـــــا ظمئـــــي لبحـــــرٍ كـــــان جـــــوداً ... تفـــــيضُ لنـــــا يـــــداه بالوفـــــاءِ[36]
وبَـــــرٌّ لا يـــــزال بِنـــــا رؤوفـــــاً ... عطوفـــــاً بالوفـــــا حَســـــنَ اللقـــــاءِ
ومصـــــــباحُ العلـــــــوم لطالبيـــــــهِ ... وللآمـــــــالِ مفتـــــــاحُ الرجـــــــاءِ
ثـــــوى تحـــــت التـــــرابِ ولـــــيس عهـــــدي ... بـــــأنَّ الشـــــمسَ إلا فـــــي الســـــماءِ[37]

وفي صورة حسية ينادي ابن إياس الحنفي (ت 930 هـ)التراب، متمنياً أن يكون هو التراب، الذي يضم رفات القاضي بدر الدين بن مزهر (ت 910هـ)، وابن إياس هنا قد تأثر بالصورة القرآنية{ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا}[38]؛ إذ يقول:

[مجزوء الرمل]

خُســـــــف البـــــــدر المفـــــــدّا ... وبسُـــــــحب التـــــــرب غابـــــــا
يـــــا ترابـــــا ضـــــمّ بـــــدري ... ليتنـــــي كنـــــت ترابـــــا[39]

- الفَقْـــــــــر:

الفَقْر:

الحاجة، وافتَقَر فلانٌ وأفقَرَه اللهُ، وهو الفقيرُ، والفَقِرُ لغةٌ رديئةٌ. وأغْنَى الله مَفاقِرَه، أي وُجوهَ فَقرِه[40]. ورجلٌ فَقيرٌ من المال. قال ابن السكيت: الفَقِيرُ الذي له بُلْغَةٌ من العيش... قال والمِسكين الذي لا شيء له. وقال الأصمعي: المسكين أحسن حالاً من الفَقِير. وقال يونس: الفَقِيرُ أحسن حالاً من المسكين[41]. الفَقْر والفُقْر: ضد الغِنى، مثل الضَّعْفِ والضُّعْفِ... وقد فَقُرَ، فهو فَقِير، والجمع فُقَراءُ، والأنثى فَقِيرةٌ من نسوة فَقَائِر؛ وحكى اللحياني: نسوة فُقَراءُ[42]...

وفي الإصطلاح، الفقر: "عبارة عن فقد ما يحتاج إليه. أما فقد ما لا حاجة إليه فلا يُسمى فقراً"[43].

ولقد عانى معظم الناس من الأوضاع الاجتماعية الخاطئة بصورة عامة، وشعراء العصر المملوكي بصورة خاصة، نظراً لشدة السنين وتوالي المحن[44].

ولم يكن العصر المملوكي بمنأى عن ظاهرة الفقر، فقد كثر في هذه الفترة، وصار سمة لبعض فئات المجتمع، فراحوا يشكون ويتذمرون، ويشتكون من الغُبن وجور الزمان[45].

وقد تجلّت ظاهرة الفقر في وصف ابن إياس الحنفي، لأحداث سنة ست وتسعين وستمائة، في كتابه الموسوم بـ (بدائعُ الزهور في وقائع الدهور) قائلاً: "وقع الغلاء بمصر وأعمالها، وانتهى سعر القمح إلى مائة وسبعين درهما، وانتهى سعر الشعير إلى مائة وعشرين درهماً كل أردب، وكذلك الفول، وبلغ الرطل اللحم إلى سبعة دراهم، وأبيع الفروج بخمسة عشر درهماً، وأبيعت البيضة الواحدة بأربعة دراهم، وأبيعت التفاحة والرمانة والسفرجلة كل واحدة منهم بثلاثين درهماً، وأبيعت القطعة السكر بثقلها فضة. فلما اشتدّ الأمر على الناس، أكلوا القطط والكلاب والحمير والبغال والخيل والجمال، ولم يبق عند أحد شيء من الدواب، حتى قيل أبيع كل كلب بخمسة دراهم، وكل قط بثلاثة دراهم، وقد عمّ هذا الغلاء سائر البلاد الشامية، حتى مكّة والمدينة"[46].

وليس من شك في أنَّ الشعراء قد رزح منهم "تحت أثقال الفقر والعوز، فضاقت به الدنيا، انطلاقاً من ضيق حجرته ورثاثة ثيابه، وندرة طعامه ومؤونته، وأضحى عنوان زمانه في عسر الحال وشدة الهزال وتقلب الأيام..." [47].

ولعلّ أول الشعراء الذين تجدر الإشارة إليهم سيف الدين المُشِدّ، الذي هاجم فقراء عصره واصفاً إيّاهم بالدواب، نظراً لتناولهم الحشيش المخدر، الذي قد شاع في عصره، فجاءت الصورة الحسيّة تحمل صورة الموت؛ إذ يقول:

[الوافر]

أرَى فقراءنـــــا مـــــن كـــــلّ علـــــم ... ومـــــن ديـــــنٍ دَوَابـــــاً فـــــي ثيـــــابِ
يُراعُـــــونَ الحشيشـــــةَ حيـــــث كانَـــــتْ ... وهـــل يَرْعـــى الحشـــيشِ ســـوى الـــدَوابِ[48]

ومن الشعراء الذين شكوا ضيق حالهم وفقرهم الجزّار؛ إذ يصوّر الشّاعر في مشهد فنّي لوحة الفقر، فهو لا ملابس لـه قبالـة له خلعة من الشمس صفراء، ثيابه وطيلسانه الهواء عند الشتاء وفي شدة البرودة، أما بيته فالأرض وسقفه السماء، وجسمه قد انحل من البرد، فصار كالغبار الذي لا يرى إلا في ضوء الشمس، وللشاعر من الليل والنهار موقف عزاء طويل، لذلك قدّم الشّاعر صورة الفقر الحسيّة، تعبيراً عن الإحساس بالموت، قائلاً:

[الخفيف]

لـــي مـــن الشّـــمس خدْمَـــةٌ صـــفراء ... لا أبـــــالي إذا أتَـــــاني الشَّـــــتَاءُ
ومـــــن الزمهريـــــر إن حـــــدث الغَيْـــــ ... مُ ثيـــــابي وطَيْلَسـاني الهـــــواءُ
بَيْتـــيَ الأرضُ والفضـــاءُ بـــه سُـــو ... رٌ مُـــدَادٌ وسَـــقْفُ بَيْتـــي السَّـــمَاءُ
لـــو تراني فـــي الشـــمس والبـــردُ قـــدْ أنحـــ ... ـلَ جســـمي لقلـــتَ إنِـــي هَبَـــاءُ
لـــي مـــن الليـــل والنهـــار علـــى الطـــو ... لِ عـــــزاءُ لا يَنْقَضـــــي وهَنَـــــاءُ[49]

وفي اللوحة الثانية يصور الجزّار داره الخربة، فدار الشّاعر لا على الأرض، وإنما هي في سابع أرض، فضلاً عن ذلك هي محجَّة للناس، ومع ذلك فهي بمثل القارعة، والشّاعر يخشى قراءة سورة الزلزلة فيها، خشيت بأن تقرأ سورة الواقعة، بقوله:

[المتقارب]

ودارِ خَـــــرابٍ قَـــــد نَزَلْـــــتُ ... ولكـــــنْ نزلْـــــتُ إلـــــى السَّـــــابِعَهْ
طريـــقٌ مـــن الطـــرق مَسْـــلوكَةٌ ... محجَّتُهـــا للـــوَرى شاسِـــعَهْ
فـــلا فَـــرقَ مـــا بـــين أنّـــي أكـــو ... نُ بهـــا أو أكـــون علـــى القارعَـــهْ
تُســـاوِرُها هفَـــواتُ النَّســـيمِ ... فُتصْـــغي بـــلا أذُنٍ سَـــامِعَهْ
إذا مـــا قـــرَأتُ إذا زُلزلَـــت ... خَشـــيتُ بـــأنْ تقـــرأ الواقِعَـــهْ[50]

أما في اللوحة الثالثة، فيقدم الشّاعر صورة حسية من صور شَظَفَ العيش، وقد ضاق صدره متنقلاً بين دمياط والمحلة لكسب لقمة العيش، بين قوم صار المنع طبيعتهم، راجياً ربه الغنى وعدم سؤال كل لئيم، قد ارتفع قدره وهو في الأصل مكانه في الأسفل، بعدها يصوّر (النصْفيَّة) التي طالما لُبست وصُبغت في مشهد فني؛ إذ يقول:

[الخفيف]

ضـــاقَ صـــدري همـــاً ولـــو لـــم أهَـــدِّدْ ... بـــك دهـــري مـــا كـــان ينَجـــرُّ خَبْلَـــهْ
تـــارةً أغتـــدي بـــدمياط أرجـــو الـــ ... ـرِّزقَ منهـــا وتـــارةً بالمحلَّـــهْ
بـــين قـــومٍ قـــد صَـــيروا المنـــع والمـــ ... ـنَّ لهـــم فـــي الزمـــان دَأْبـــاً وملَّـــهْ
فـــاغْنني عـــن ســـؤال كـــل لئـــيمٍ ... قـــد عـــلا قـــدره وإن كـــان سِـــفْلَهْ

* * *

لـــي نِصْـــفيَّةٌ تَعُـــدُّ مـــن العُمْـــ ... ـرِ ســـنينا غَسَـــلْتُها ألْـــفَ غَسْـــلَهْ
كـــلَّ يَـــوْمٍ يحوطهـــا العَصْـــرُ والـــدّقُّ ... مـــراراً ومـــا تُقـــرُّ بجُمْلَـــهْ
فَهْـــي تَعْتَـــلُّ كلمـــا غَسَّـــلُوها ... ويُزيـــلُ النَّشـــاءُ تلـــكَ الغِسْـــلَهْ[51]

وثَمَّة ملحوظة فقد ذهب الشّاعر المملوكي، وهو يصوّر المرْء وقد كفَّ كفَّيْه خوف الفقر، أضف إلى خشيته من أن يصاب بتلك السهام.

قال مُجير الدين بن تميم: [الطويل]

أيـــا ذا الـــذي قـــد كـــفَّ كَفّيْـــهِ عامـــداً ... عـــن الجـــودِ خـــوفَ الفقـــرِ مـــا ذاكَ ســـائغُ
أتخشـــى ســـهامَ الفَقْـــرِ مـــا دُمْـــتَ مُنفقـــاً ... نصـــيبكَ والنُّعمَـــى عليـــكَ ســـوابغُ؟[52]

وإذا كان مُجير الدين بن تميم قد صوّر خشيته من سهام الفقر، فابن النّقيب الفقيسيّ قد صوّر فقره وشيخوخته ومعيشته القاسية، بقوله: [الطويل]

وَجُـــرُدْتُ مَـــعْ فَقْـــرِي وَشَـــيْخوختِي التـــي عَرَتْنِـــي فَعَيْشِـــي مثـــلُ نـــومِي مُشَـــرَّدُ
فـــلا يَـــدَّعِي غَيـــرِي مَقـــامِي فـــإنَّنِي أنَـــا ذَلِـــكَ الشّـــيْخُ الفَقِيْـــرُ المجَـــرَّدُ[53]

ويتحدث البُوصيري عن أحواله الخاصة؛ إذ يعرض شكواه على أحد الوزراء، واصفاً حاله وفقره وكثرة عياله، قائلاً: [السريع]

يـــا أيهـــا المَـــوْلَى الـــوزيرُ الـــذي أيَّامُـــــــه طابَعـــــــةَ أمْـــــرَهْ
ومَـــنْ لَـــهُ مَنْزِلَـــةٌ فـــي العُـــلا تَكِـــلُّ عَـــنْ أَوْصـــافِها الفِكْـــرَهْ
أَخْلاقُـــكَ الغُـــرُّ دَعَتْنَـــا إلَـــى الْـــ إدْلاءِ فـــي القَـــوْلِ علـــى غِـــرَّهْ[54]

وفي لوحة مؤلمة تثير في النفوس الشفقة والرحمة، يجسّد البوصيري مشهد الفقر مصوراً متاع البيت الذي خلا حتى من إناء الشرب ومن القمح أو الخبز[55]؛ إذ يذكر فيها سوى حاله محاولاً استدرار عطف الوزير لتلك الصورة المؤثرة، بعدها ينتقل لرسم لوحة صوم أولاد الشّاعر، وهم يتحلقون بعد صيام يومهم لتلك الخبيزة المسلوقة، الذي يجعل من هذه الوجبة نشرة يومية؛ لذلك فالفقر عند الشّاعر، موت قبل الموت؛ إذ يقول:

[السريع]

إليـــــكَ نَشْـــــكُو حالَنـــــا إننـــــا عائلـــــةٌ فـــــي غايَـــــةِ الكَثْـــــرَهْ
أُحَـــدِّثُ المـــوْلَى الحَـــدِيثَ الـــذي جَـــرَى علـــيهم بـــالخَيْطِ وَالإبْـــرَهْ
صـــاموا مـــع النـــاس ولكـــنَّهمْ كـــانوا لمـــنْ يُبْصِـــرُهم عِبْـــرَهْ
إن شَـــرِبوا فـــالبِئْرُ زِيـــرٌ لهُـــمْ مـــا بَرِحَـــتْ والشَّـــرْبَةُ الجَـــرَّهْ
لهُـــمْ مِـــنَ الخُبَّيْـــزِ مَسْـــلوقةٌ فـــي كـــلِّ يَـــوْمٍ تُشْـــبِهُ النَّشْـــرَه[56]

وفي صورة حسية أخرى لا تقل عن سابقتها، من ضيق الحال وعسر المعيشة، يرسم البُوصيري صورة إقبال العيد، وهم لا قمح ولا خبز ولا فطرة عندهم، في قوله: [السريع]

وأقبـــلَ العيـــدُ ومـــا عنـــدهم قَمـــحٌ ولا خُبْـــزٌ ولا فَطْـــرَه
فـــارْحَمْهُم إنْ أبْصَـــرُوا كَعْكَـــةً فـــي يَـــدِ طِفْـــلٍ أَوْ رَأَوْا تَمْـــرَه
تَشْـــخَصُ أبصـــارُهُمْ نَحْوَهـــا بِشَـــهْقَةٍ تَتْبَعُهـــا زَفـــرَه[57]

أما ابن دقيق العيد(ت 702 هـ)، فقد ذكرت الروايات المختلفة عن فقره حتى أيام توليته منصب قاضي القضاة؛ إذ ذاق مرارة الفاقة وقاسى من الفقرة الكثير، وفي ذلك يقول: [الطويل]

لعمـــري لقـــد قاســـيتُ بـــالفقر شـــدة وَقعـــتُ بِهـــا فـــي حَيْـــرة وَشَـــتَاتِ
فـــإنْ بحـــتُ بالشـــكوى هتكـــتُ مروءتـــي وإنْ لـــمْ أبـــحْ بالصـــبر خفْـــتُ مَمَـــاتي
فـــأعظمْ بـــه مِـــنْ نَـــازل بِمُلمّـــة يُزيـــلُ حَيـــائي أوْ يُزيـــلُ حَيَـــاتِي[58]

وجاء ابن دانيال الموصلّي الكحّال، مصوراً فقره وبؤسه وحرمانه، واصفاً بيته الذي يخلو من الطعام بعامة واللحم خاصة، وقد هجرت بيته القطط، أما كلبه فلم يرَ صورة العظم، وتوقف المطبخ وأدواته، فضلاً عن موقده كان بارداً، مما جعل العنكبوت أن يتخذه بيتاً له، حتى ملَّ عليه العنكبوت، لطول لبثه فيه، وأصبحت مغارفه وزباديه دارسة كالرسوم التي عفى عليها الزمان، وقدوره لم تعرف يوماً النار، وهذا كناية على عدم استعمالها، وتوقف المطبخ مع أدواته، بقوله:

[السريع]

لقد هَجَرَتْ بيتي القطاط لفقده ... وأصبحَ كلبي لا يرى صورةَ العَظْمِ
وكانونُ قدري مثلُ كانونَ بارِدٌ ... ومَلَّ عليه العنكبوتُ منَ البرمِ
وَقَد عَتّقت نارُ الوقودِ مغارِفي ... ولاحتْ زَبَادينا دوارسَ كالرَّسمِ
وأمسَتْ مناديلُ الخوانِ كأنّها ... طيالسُنا إذ لم تُعَد من الزُّهمِ
وصارتْ قدوري وهي شهبٌ من الطوى ... كأنْ لم تَكُنْ يوماً تُعدُّ منَ الدُّهمِ[59]

وصفي الدين الحلّي يصوّر قسوة حياته وضيق حاله، ويدلل على خيبة أمله، وعيشه في الأوهام من ممدوحه؛ إذ يلتمس تغيير حياته من الفقر إلى الغنى؛ لكن من دون جدوى، حتى يمل الشّاعر من ممدوحه، ويأس من وعوده، في قوله:

[الرمل]

قد قضَينا العُمرَ في مطْلِكُمُ ... وظنّنا وعدكَم كانَ منَاما
أإذا مُتنا نَرَى وَعدَكُمُ ... أم إذا كُنّا تُراباً وعِظامَا؟[60]

وفي المعنى نفسه ينقل ابن نباتة المصري، صورة حسيّة تمثل يأسه من ممدوحه، بعد أن قضى حياته مدّاحاً، والشّاعر هنا فقير الحال مُعْدم؛ إذ يقول: [الهزج]

قضَيْتُ العُمْرَ مَدّاحاً ... وهذا يا أخي الحالُ
فَقيرُ الوَجْهِ والكَفِّ ... فلا جَاهٌ ولا مالُ[61]

ويصوّر ابن نباتة كثرة عياله، وبؤسه في حياته، ويأسه من توفير العيش الرغيد لهم، بأسلوبٍ هزلي ساخر قائلاً:

[الوافر]

لقد أصبحتُ ذا عمْرٍ عجيبٍ ... أقضّي فيه بالانكادِ وقتي
من الأولاد خمسٌ حولَ أمٍّ ... فواحربا ه من خمسٍ وستّ[62]

وقد صوَّر ابن مليك الحموي أيام بؤسه وضيق حاله، فأورثه الوهن واليأس، وقد باع كل ما يمتلكه، من أجل سد معيشته، حتى وصل هذا الأمر إلى بغلته وثيابه, معلناً أنه لم يكن لديه إلاّ فروة قد طار صوفها من قدمها، بعدها يستعرض ضعف جسمه وانحلاله وقدوم فصل الشتاء، وهو لا يملك ما يدفع عنه برودة الشتاء، بقوله:

[السريع]

والفقرُ بي أفضي إلى بيعِ ما ... فوقي وتحتي بالهوى والهوانْ
وبعتُ حتى بغلتي والكِسا ... وجرَّت القافيةُ الطيلسانْ
ولم يكن عندي سوى فروةٍ ... تعُدُّ سبعاً وقروناً ثمانْ
قد طار من طول المدى صوفُها ... وعاف منها كلُّ قاصٍ ودانْ
وقد وهى جسمي وقلَّ القُوى ... وكنت من قبل قويَّ الجنانْ
وجاء زحفاً جيشُ فصلِ الشتا ... محاربا ً بالبردِ لا بالسنان
واشتدَّ حتى إنَّ من بردِهِ ... لم يدفَ منّي فيه غيرُ اللسانْ[63]

- القَبْرُ:

قبر: المَقْبَرَةُ والمَقْبُرَةُ: مَوْضِعُ القُبُور، والقَبْرُ: واحدٌ. والقَبْرُ: مصدر، والقَبْرُ: موضِعُ القَبْرِ، وقَبَرْتُه أقبُرُه قَبْراً ومَقْبَراً[64]. وقَبَرْتُ الميتَ أَقْبُرُهُ قَبْراً، أي دفنته. وأَقْبَرْتُهُ، أي أمرت بأن يُقْبَر[65]. والقَبْرُ: مدفن الإنسان، وجمعه قُبُورٌ... ومنه الحديث: لا تجعلوا بيوتَكم مَقابر أَي لا تجعلوها لكم كَالقُبُورِ لا تصلون فيها لأَن العبد إذا مات وصار في قَبْرِهِ لم يُصَلّ، ويشهد له قوله فيه: اجعلوا من صلاتكم في بيوتكم ولا تتخذوها قُبُوراً[66]. والقبر والجدث من الألفاظ الدالة على الموت، ويمثلان مرحلة أخرى للميت بعد موته.

وفي القرآن الكريم يعبر عن القبر بالزيارة في قوله تعالى: {أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ (1) حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ(2)} [67].

وهذا مما يدل على أن الإنسان "في القبر هو مجرد زائر، وليس مقيماً إقامة دائمة، وما دام زائراً وليس مقيماً، فإن الزيارة مهما طالت.. سيأتي لها وقت وتنتهي وتزول، وهي زيارة ستنتهي بيوم الحشر، فالموت هو انتقال من قوانين إلى قوانين أخرى مختلفة، فالإنسان في حياته، له جرم مادي، هو الجسد، ولكن في الموت يعود الجسد إلى الأرض مرة أخرى، ثم ترد إلى صاحبه يوم القيامة"[68].

ومن الأهمية بمكان القول، أن الشّاعر المملوكي، تناول صورة القبر في الشعر، مستحضراً الموروث العربي القديم، وواصفاً حال المرْء مهما امتدّ به الأمد وطال، لا بد يوماً من أن يفارق الحياة، فلا نجاة للمرْء ولا عاصم له، من أن تصل إليه يد الفناء والقدر، وهو يرسم صورة القبر، الذي منه سوف يحشر في يوم الحساب، وحيداً بما قدمت يداه من خيرٍ أو شرٍ، وهو هنا يتكئ على الصّورة القرآنية {وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ}[69].

قال ابن الظهير الإربلي: [الخفيف]

كُـــلُّ حَـــيٍّ إلـــى المَمـــاتِ مآبُـــهْ ... وَمَـــدى عُمْـــرِهِ سَـــريعٌ ذِهابُـــهْ
ثـــمَّ مـــن قبـــره سيُحْشَـــرُ فَـــرْدَاً ... واقفـــاً وَحْـــدَه يُـــوَفَّى حِسَـــابهْ[70]

أما الشّاعر الجزّار فيصوّر موت ابن الفارض ودفنه في موضع يعرف بالعارض، إذ لم يبق مطر إلا وقد زاره، يروي قبره الذي سوف يبقى حتى يوم العرض تحت العارض، موظفاً الموروث العربي القديم؛ إذ يقول:

[الكامل]

لـــم يَبْـــقَ غَيْـــثُ ســـحابة إلا وقـــد ... فُرضَـــتْ عليـــه زيـــارةُ ابـــن الفـــارضِ
لا غَـــرْوَ أن يُـــرْوَى ثَـــرَاهُ وقبـــرهُ ... بـــاقٍ ليـــوم العَـــرْضِ تحـــت العـــارضِ[71]

وتأتي صورة القبر عند مُجير الدين بن تميم تحمل معانٍ أخرى، فقلب الشّاعر له قبر يُدفن فيه الأموات في الأحياء، وتلك صورة من مات ولم يستطع البكاء أن يُرجع من بَعُدَ، بقوله:

[الكامل]

لـــو كـــان فـــيضُ الـــدَّمعِ يُرجـــعُ مَـــنْ نـــأَى ... عنّـــي بكيـــتُ بســـائرِ الأعضـــاءِ
قلبـــي لـــه قبـــرٌ وتلـــكَ عجيبـــةٌ ... أَنْ يُقبـــرَ الأَمـــواتُ فـــي الأَحيـــاءِ[72]

ويرسم الشّاعر المملوكي صورة القبر، من خلال تلك الليالي والأيام، التي تذّكر المرْء بزوال الدنيا الفانية، وطلب الآخرة الباقية، مذّكرة إياه بزوال كل ما يملك؛ إذ تدنُّوه من القبر وتريه الأموات وهو موقن بالموت؛ لكنه يتغافل ولا يأخذ العبرة قبل الفوت، والشّاعر هنا يستحضر مضمون الشّاعر أبي العتاهية:

[الطويل]

غَفَلْـــتُ وَلَـــيْسَ الْمـــوْتُ عَنِّـــي بِغَافِـــلٍ ... وَإِنِّـــي أَرَاهُ بِـــي لأَوَّلَ نَـــازِلِ
نَظَـــرْتُ إلـــى الـــدُّنْيا بعَـــيْنٍ مَرِيضَـــةٍ ... وَفِكْـــرَةِ مَغْـــرُورٍ وَتَـــدْبيرِ جَاهِـــلِ[73]

وفي هذا يقول تقيّ الدّين السّروجي(ت 693 هـ): [البسيط]

أرَى اللَيَـــــالِيَ والأيَّـــــامَ تَجـــــذِبُني ... بِحَبْـــلِ عُمْـــرِي إلـــى قَبـــري وَتُـــدْنِيْنِي
وَكـــمْ تُرِيْنِـــيَ مِـــنْ مَيْـــتٍ وذاكَ أنـــا ... وكـــمْ تُحـــدِّثُ غَيْـــرِي وَهْـــيَ تَعْنِيْنِـــي[74]

وللشاعر شهاب الدين العزازي ولدٌ يموت صغيراً اسمه ناصر الدين محمد، فيبكيه الشّاعر ويرسم بأدواته الشعرية صورة حسيّة، عندما يطلب من الدموع أن يسقيا، فإن لم يحفظ الدمع العهد فاسقياه بالمطر، قائلاً:

[الخفيف]

واســـقيا قبـــرَهُ الـــدُّموعَ فـــإنْ خـــا ... نَكُمـــا الـــدَّمعُ فاســـقياهُ العِهـــادا
أيُّهـــا المـــوتُ كـــمْ ثللْـــتَ عروشـــاً ... باذخـــاتٍ وكـــم أمَلْـــتَ عِمـــادا
فعلـــى العبـــدِ قـــدْ غُلظْـــتَ طباعـــاً ... وعلـــى الحُـــرِّ قـــد قَســـوتَ فُـــؤدا[75]

ولم ينس ابن الوردي (ت 749 هـ)تصوير القبر وهو يصوّر مرثيه؛ إذ بكت عليه الدموع الغزيرة، فضلاً عن أمطار السماء، متسائلاً كيف يمكن أن تتسع المقابر للبحور، في إشارة لعلو شأن المرثي، إذ يقول:

[الوافر]

ويـــا مطـــرَ الســـماءِ أراكَ تهمـــي ... أظنّـــكَ باكيـــاً صـــدرَ الصـــدورِ
أمـــا واللهِ لـــو أنّـــا قَـــدرْنا ... غســـلْنا البـــدرَ بالـــدمعِ الغزيـــرِ
ولكـــنَّ الـــدموعَ دمٌ عبـــيطٌ ... وشـــرطُ الغســـلِ بالمـــاءِ الطهـــورِ
لقـــدْ بلـــغَ المنـــى قبـــرٌ حـــواهُ ... أتتســـعُ المقـــابرُ للبحـــورِ[76]

وفي السّياق نفسه يصوّر الشّاعر صفي الدين الحلّي، مرثيه خاله جلال الدين عبد الله بن حمزة بن محاسن، وقد سقى الله تربة ضمت جسمه، داعياً لساكنيها بالرحمة والرضوان، بقوله: [الطويل]

سـقَى اللهُ تُربـاً ضَـمّ جِسـمَكَ وابِـلاً يُنَمّـقُ رَوضـاً بَـردُهُ ويَفَـوّفُ[77]

وأيضاً قال ابن نباتة المصري، في مرثيه جمال الدين بن هشام، يصوّر سقي قبره بالمطر الغزير؛ إذ تجر على قبره سحابة من البرد، في قوله: [الطويل]

سـقي ابـن هشـام فـي الثـرى نـوء رحمـةٍ تجـرّ علـى مثـواه ذيـل غمـام
سـأروي لـه مـن سـيرة المـدح سـيرةً فمـا زلـت أروي سـيرة ابـن هشـام[78]

ويتناول ابن حجر العسقلاني صورة القبر، لمَّا يرثي شيخ الإسلام سراج الدين البلقيني (ت 805هـ)، واصفاً "تلك المهابة التي بدت على تلك القبور إلى غير سبب، منها ما حوته من علوم، وفضائل، وأخلاق حميدة، ولذا تعجّبوا من مساحتها الصغيرة التي ضمّت بحاراً من العلوم"[79].

قال ابن حجر العسقلاني: [البسيط]

عُجبِـي لِقَبـرٍ حَـوَاهُ انَّـهُ عَجَـبٌ إذ بـانَ مِنـهُ اتّسـاعُ الصَّـدرِ للبَحـرِ[80]

ولم يغفل ابن سودون البشبغاوي(ت 868 هـ) عن صورة القبر الحسيّة؛ إذ يقول:

[الطويل]

لقـد فـاز عبـدٌ قـد أعـدَّ لنفسـه مـن الخيـر قبـل المـوت مـا هـو أكمـل
يصـير لـه فـي القبـر أنسـاً فإنَّمـا أنـيس الفتـى فـي القبـر مـا كـان يعمـلُ[81]

ويخاطب الشهاب المنصوري القبر، الذي حَوَى قاضي القضاة سعد الدين سعد الديري الحنفي(ت 867هـ)، مهنئاً إياه لأنه قد ضم في داخله الجميل مع الجمال، وفي الوقت نفسه معاتباً إياه بتغييبه لذلك الوجه، الذي هو أشهى لناظره من الماء العذب للعطشان، بقوله: [الوافر]

فيـا قبـراً ثـوى فيـه تهنّـى فقـد حـزت الجميـل مـع الجمـال
وقـد غيّبـت وجهـا كـان أشـهى إلـى الظـامي مـن المـاء الـزلال[82]

أما ابن مليك الحموي، فقد صوّر تربة ضمّت في باطنها الشيخ أبا العباس الغمري (ت 913هـ)، بالدعوة للقبر بالسُقيا والمطر الغزير، قائلاً: [الطويل]

سـقى الله تربـاً ضـمَّهُ وابـلُ الحيـا وجـاد عليـه مـن سـحائبِهِ القطْـرُ
وعوَّضـهُ عـن هـذه الـدارِ جنَّـةً يقـدمُ لـه عـن كـلِّ دارٍ بهـا قصـرُ[83]

ويخاطب ابن إياس الحنفي القبر، بألا يظلم على مرثيه الملك الناصر محمد ابن الأشرف قايتباي (ت 904هـ)، فقد كُحل بطلعته العتمة، ويغبط القبر على احتوائه لهذا المتوفَّى؛ إذ يقول: [الكامل]

يـا قبـر لا تظلـم عليـه فطالمـا جلّـى بطلعتـه دجـى الإظـلام
طـوبى لقبـر قـد حـواه كيـف لا يحكـي السـماء وفيـه بـدر تمـام[84]

يتضح مما تقدم أن صورة القبر، تمثل ما اكتسبه القبر أو حظي به، من مجد ورفعة وعلو شأن؛ وذلك بما احتواه القبر لذلك الميت، فضلاً عن ذلك تحدثوا عن القبور من الداخل، بوصفها قطعة من قطع الجنة، فيها الحور والولدان، وتعمرها الرحمة والمغفرة، ناهيك عن ما تمثله تلك القبور، من خلال الدعوة للقبور بالسقيا، ولساكنيها بالرحمة والمغفرة[85].

- الشَّـــــــيْب:

شيب: الشَّيْبُ: معروف. شاب يَشِيبُ شَيْباً وشَيْبةً. ورجل أشْيَبُ، وقومٌ شِيبٌ، ولا يُثْعَتُ المرأة: لا يُقال: امرأة شيباء. يقال: شاب رأسها[86]. والشَيْبُ والمشِيبُ واحدٌ. وقال الأصمعي: الشَيْبُ بياضُ الشَعَرِ. والمَشِيبُ دخولُ الرجُل في حَدِّ الشِيبِ من الرجَال[87]. والأشْيَبُ: المُبْيَضُّ الرأس. وشَيَّبَهُ الحزْنُ، وشَيَّبَ الحُزْنُ رَأْسه، وبرأْسِهِ، وأشابَ رأسَهُ وبَرأسِهِ، وقَوْمٌ شِيبٌ[88].

وقد قيل في الشيب: "إن الله تعالى يقول الشيب نوري وأنا أستحي أن أحرقه بناري".[89]
ومن الأهمية بمكان القول، أن الشيب "لم يكن المرآة التي تعكس هموم الشّاعر وهاجسه من أعباء العمر أو الزمن حسب، أنما هو أيضاً انعكاس لمواقف الناس من الشيب والمشيب على السواء"[90].
إذاً، فالشّاعر مثله في ذلك مثل سائر الناس، ينزعج لمَّا يرى أول شعرة في رأسه، ويعدها بداية الطريق إلى المشيب، فضلاً عن ذلك فالشيب ضيف غير مرغوب فيه، تعافه النفس، وتعرض عنه الأنظار، ويبدى الشعراء فزعهم منه، ومنهم من يعدّ الشيب مصيبة من المصائب التي تحل بالإنسان، أو هو جناية الزمان على الإنسان، ناهيك عن ذلك من الشعراء من يعدّ الشيب ليس عيباً أو ذنباً فحسب، وإنما هو يقود إلى السفه[91].
وحينما يحلّ الشّيب على الشّاعر المملوكي، تعَزَفَ الحبيبة وتصد من بعد إقبالها، فيصوّر الشّاعر المملوكي دفاعه عن المشيب، محاولاً تذكير الحبيبة بطبيعتها في الغدر، مع تجسيد ذلك بتذكيرها بأيام الشباب، فالشيب يرتبط في وجدان المحب بالموت.
قال سيف الدّين المُشِدّ: [الوافر]

تَقُـــولُ وقـــد رأتْ شـــيْبي تَبـــدَّا ... لقـــد حاولـــتُ مَحْبُوبـــاً سَـــواكَا
فقُلْـــتُ كـــذاك شـــيمتكمّ مـــلالٌ ... وغـــدرٌ لا تَـــرَوْنَ لـــه فكَاكـــا
تـــذكرَ عارضـــي عهـــدَ التصـــابِي ... فحـــنَّ إلـــى البيـــاضِ فكـــان ذاكـــا[92]

وفي السّياق نفسه من تصوير صدور الحبيبة، وعزوفها عند ظهور المشيب، يقول الصاحب شرف الدّين الأنصاري:
[المتقارب]

تَـــوَلّى شَـــبابي فـــوَلّى الغَـــرامُ ... ولازَمَ شَـــيْبي لُـــزومَ الغَـــريمْ
ولـــو لـــم يَصِـــدْني بازيُّـــهُ ... لَمَـــا صـــارَمَتْني مَهـــاةُ الصَّـــريمْ[93]

ومن الشعراء من يصوّر إحياءه عصر الشباب الذي ذهب، متلهفاً لتلك الأيام التي فاتت، وقد كشف له المشيب الزمان وأهله، فالشيب نذيراً بالشيخوخة والموت.
قال شهاب الدّين التلّعفريّ: [الطويل]

ســلامٌ علــى عصــرِ الشَّــباب الــذي مضَــى ... وروحـــي بضـــافي ظِلِّـــهِ مـــا تملّـــتِ
وآهـــاً لأيَّـــام المشـــيبِ التـــي بهـــا ... تجلّـــتْ غَيابـــاتُ العَمَـــى وتوَلَّـــتِ
عرفـــتُ بهـــا هـــذا الزَّمـــانَ وأهلَـــهُ ... فرحـــتُ لِشـــيبي غـــافراً كُـــلَّ زلَّـــةِ[94]

ويحزن الشّاعر المملوكي مع بداية ظهور المشيب في رأسه، فيصوّر هجرة الغانيات بعد مدة انعدام الشباب، ويسخر من رجل علا البياض رأسه.
قال يوسف بن لؤلؤ الذهبي(ت 680 هـ): [الطويل]

وعـــاجلني صـــبحٌ مـــن الشـــيب قبـــل أنْ ... أهُـــوّم فـــي ليـــل الشَّـــباب وأهجعـــا
وَحَجَّـــبَ عنـــي الغانِيـــات كأنَّـــهُ ... بيـــاضٌ علـــى العينـــين والفـــودِ أجمعـــا[95]

وقد يصاب الشّاعر المملوكي بمكروهٍ في رأسهِ، فيصوّر بداية طلائع المشيب.
قال مُجير الدّين بن تميم: [الكامل]

خطـــبٌ ألَـــمَّ وشـــيبُ رأســـي جملـــةً ... فلقيـــتُ شـــرّاً منهمـــا وكـــذا قُضـــي
فاعجـــبْ لخطـــبٍ أَســـودٍ لـــم يقتنـــع ... بفعالـــه وأتـــى بخَطْـــبٍ أَبـــيضِ[96]

ومن الشعراء من يصوّر أسفه على فَقْد المشيب؛ وذلك لأن أيام الشباب تخلفها أيام المشيب، أما مدة المشيب فلا مدة تخلفها، وعليه يجب التأسف على هذه المدة التي بانقضائها يكون مصير المرْء الموت.
قال ابن النّقيب الفقيسيّ: [الكامل]

لا تأسَـــفَنَّ علـــى الشّـــبابِ وَفَقْـــدِهِ ... فعلـــى المشِـــيْبِ وفَقْـــدِهِ يُتَاسَّـــفُ
هـــا ذاك يُخْلِفُـــهُ سُـــوَاهُ إذا انْقَضَـــى ... ومَضَـــى وهَـــذا إنْ مَضَـــى لا يخلـــفُ[97]

وفي هذا يأتي الشّاعر المملوكي يتناول صورة المشيب، فإذا كان الشّاعر حمل التَّسهُّد على عيونه، فالشيب قد حمله على رأسه، وهو بذلك يضيف إلى هموم الحياة هماً جديداً.
قال الشّاب الظّريف(ت 688 هـ): [الوافر]

حَملـــتُ تَســـهُّدي وَالشّـــيْبُ هَـــذا ... عَلـــى رَأســـي وَذَاكَ علـــى عُيُـــوني[98]

وقد كتَبَ المشيب عند البُوصيري، فجعل من الشيب بداية الطريق نحو الموت، بقوله: [الكامل]

ذهَـبَ الشـبابُ وسَـوْفَ أذْهَـبُ مِثْلَمـا ذَهَـبَ الشـبابُ ومـا امـرؤٌ بِمُخَلّـدِ[99]

إن حتمية المشيب قدْ أبكت الشّاعر لفَقْد الشباب، وأحزنته إعراض الفتاة التي نَهد ثدْيها، الكواعب الحسان، والشّاعر هنا يستدعي مضمون الشّاعر القديم: [الطويل]

إذَا شَـابَ رَأسُ المـرْء أوْ قَـلَّ مَالُـه فَلَـيْسَ لَـهُ مـن وُدِّهِـنَّ نَصِـيبُ[100]

قال شهاب الدّين العزازي: [الكامل]

أبكـاهُ تفـويضُ الشَّـبابِ الـذّاهبِ وشـجاهُ إعـراضُ الفتـاةِ الكاعـبِ
وثَنـاهُ عَـنْ صَـبُواتهِ فَقْـدُ الصِّـبا وعَـنِ المُجـونِ بيـاضُ رأسٍ شـائبِ[101]

ولا مراء فيه أن شيب الرأس، إنما يدل على استحالة عودة الشباب للمرْء، والمشيب يرتبط عند الشّاعر بالمِنيَّة.

قال ابن دانيال الموصليّ: [الطويل]

وإذْ شَـابَ رأسـي شـاب عيَشـي شـآيبٌ رَمـى بفُـؤادي مُنيَتـي بِمنيّتـي[102]

وهذا عبد الحق بن أبي علي الحموي المعروف بابن البارع (ت 711هـ)، يصوّر سرعة زوال الشباب، لذا يعطي الشباب نصيبه من الملذات، بقوله: [الطويل]

ومـالي لا أعطـى الشـباب نصـيبه وغصـناه يهتـزان فـي عـوده الرطـب
رأيـت الليـالي ينتهـبن شـبيبتي فسـارعت باللـذات فـي ذلـك النهـب[103]

وقد كتب يوسف بن أحمد الإسكندراني (ت 733هـ)، مصوراً الشيب قائلاً: [البسيط]

مـذ حـل زائـر هـذا الشـيب صـيرني بعـد الصـبي وازاري ذكـرا وزاري[104]

وقد يأتي الشيب والعمى سواء فلا فرق بينهما.

قال ابن الوردي: [الرمل]

أنكـرتْ شـيبي فصـددتْ ونـأتْ قلـتُ إنَّ المـالَ للشـيبِ دوا
قالـتِ اسـكتْ إنمـا الشـيبُ عمـى فبيـاضُ العـينِ والشـيبُ سـوا[105]

ويتيقّن الشّاعر صفي الدين الحلّي، من ضيفه الشيب بقرب النهاية للحياة، فالمشيب يرتبط في وجدان المرْء بالموت؛ إذ يقول: [الخفيف]

لـو تَيَقّنـتُ أنّ ضَـيفَ بيـاضِ الشّيـ ـب يَبقـى لمـا كَرِهـتُ الشّـبابَا
غيـرَ أنّـي علِمـتُ مـن ذلـكَ الـزّا ئـرِ مـا يَقتَضـي ومـا يُتَقاضَـى[106]

وقد تبرز صورة المشيب الحسيّة عند صلاح الدين الصفدي؛ إذ يفاضل بياض المشيب على سواد الشباب، بقوله: [الوافر]

أرى فضـل المشـيب علـى شـبابي يخـالف فيـه بعـض الأغبيـاءِ
وهبنـي قلـت هـذا الصـبح ليـلٌ أيعمـى العـالمون عـن الضـياءِ[107]

أما ابن نباتة المصري، فيربط انتشار الشيب بالهموم، مصوراً كثرة الشيب في رأسه بسبب كثرة الهموم، قائلاً: [الخفيف]

عجبـت خلتـي لـوخطِ مشـيبي فـي أوان الصـبي وغيـر عجيـب
مـن يَعـمُ فـي بحـار همـي يظهـر زَبـدٌ فـوقَ فَرعـهِ الغربيـب
مـن يحـارب حـوادث الـدهر يخفـى لـون فُؤدَيـهِ فـي غبـار الحـروب
أيُّ فـرع جـونٍ علـى عنـتِ الايـا م يبقـى وأي غصـنٍ رطيـب[108]

ويبدو أن الشيب عند تاج الدين السُبكي (ت 771هـ) تسبب بمقاطعة النساء وإعراضهن عنه، في قوله: [مجزوء الكامل]

بكَـرَ العـواذلُ فـي الغَـرا مِ يَلُمْنَنـي وألـو مهنَّـهْ
ويقُلـنَ شـيبٌ قـد عـلا كَ وقـدْ كبـرتَ فقلـتُ إنَّـهْ
أبـرزنَ لمَّـا لُمـنَ قَلـ ـبي المضـمَراتِ المُسـتَكِنَّة[109]

ويجري ابن حجر العسقلاني معادلة بين الشباب والشيب، بعدم التمسك بروح الشباب والتصابي، مؤكداً أن الشباب غير حليف المرْء، وخيوط الشيب لم تخلق دون فائدة؛ إذ يقول:

[الكامل]

يـــا أيُّهـــا الشـــيخُ المطيـــعُ هَـــوَاهُ دَع هَـــذِي الدَّعابـــةَ قـــد أتَـــى داعـــى الـــرَّدَى
وَخُيُـــوط هَـــذا الشَّـــيب لا تنســـج بهـــا ثَـــوبَ الصّـــبابة فَهِـــيَ مَـــا خُلِقَـــت سُـــدَى[110]

ويروم ابن مليك الحموي أن يعود رَيْعَان الشباب؛ لكن أمر بعيد أن تعود الأيام، وعودة شبابه إليه، بعد فَقْد الشباب ولما أصابه من مشيب، فهو زمن ماضٍ لا عودة له، والشّاعر هنا استَمَدَّ صورته الحسيّة من صورة الشّاعر العباسي:

[الوافر]

فَيَـــا لَيْـــتَ الشَّـــبَابَ يَعُـــودُ يَوْمـــاً فَـــأُخْبِرُهُ بَمـــا فَعَـــلَ المشِـــيبُ[111]

وفي هذا يقول ابن مليك الحموي: [الطويل]

أمـــن بعـــدِ مـــا لاح المشـــيبُ بعارضـــي وعَـــرفُ الصِّـــبا ولّـــى ولـــم أرَ طِيبـــا
أرومُ شـــبابي أن يعـــودَ كمـــا بَـــدا وهيهـــاتَ عـــودي أن يعـــود رطيبـــا[112]

-الخَـــــراب:

خرب: يقال: خَرابٌ، وثلاثةُ أَخربة، والجميعُ: خَربٌ كالكَلمة والكَلِم، ولغة تميم: خِرْبٌ وكلْمٌ الواحدة: خِرْبة وكلْمَة. وخَرِبَ خَراباً وخرّبتُه تخريباً. وفي الدُّعاء "اللهُمَّ مُخَرِبَ الدُّنيا ومُعَمِّرَ الآخرةِ"، أي خَلقتَها للخَراب[113]. والخراب: ضدّ العمارة. وقد خَرِبَ الموضع بالكسر فهو خَرِبٌ. ودارٌ خَربَةٌ، وأخرجها صاحبُهَا. وخَرَّبُوا بيوتهم، شُدِّد لِفُشُوّ الفعل أو للمبالغة[114]. والخَرابُ: ضِدُّ العُمْرانِ، والجمع أَخْربةٌ... والخَرِبةُ: موضع الخَرابِ، والجمع خَرِباتٌ... والتَّخْرِيبُ: الهَدْمُ، والمرادُ به ما يُخربه المُلُوك من العُمْران، وتعمُرُه من الخَرابِ شِهُوةٌ لا إصلاحاً، ويَدْخلُ فيه ما يَعْمَلُه المترفُون من تخرْيب المساكِنِ العامِرةِ لغير ضرورة وإنشاءِ عِمارَتِها[115].

ومع إطلالة القرن السابع للهجرة، تعرضت الدولة الإسلامية إلى محن كثيرة وأزمات حادة، وفتن متلاحقة، وكان الخلفاء أُلعوبة بيد الأعاجم الذين تصرّفوا بالبلاد كما شاؤوا، ولقد كان لضعف "الخلافة، وتفرّق الناس شيعاً وأحزاباً وفقدان الأمن والطمأنينة شجّعت هولاكو على الزحف نحو العراق والبلاد العربية والسيطرة عليها فتوجه نحوها، واحتل في طريقه بلاد فارس"[116].

وقد انتهت الخلافة العباسية في بغداد، مركز العلم والحضارة وعاصمة الدولة الإسلامية آنذاك بدخول التتار عام (656هـ)، "وانقضت الخلافة من بغداد وزالت أيامهم من تلك البلاد، وخربَت بغداد الخراب العظيم، وأحْرِقت كتب العلم التي كانت بها من سائر العلوم والفنون التي ما كانت في الدنيا"[117].

وقد صوّر الشّعراء نكبة بغداد، وما حلّ بها من خَراب، فوقفوا يجسدون اللوعة والأسى، وقد عانوا من أحوالها، وأخذوا في بكائها وندبها.

قال الشيخ تقي الدين إسماعيل بن أبي اليسر التنوخي (ت 672هـ):

[البسيط]

لســـائلِ الـــدَّمْعِ عـــن بغـــداد أخبـــارُ فمـــا وقُوفُـــك والأحبـــابُ قـــد ســـاروا
يـــا زائـــرين إلـــى الـــزَّوْرَاء لا تَفِـــدوا فمـــا بـــذاك الحِمَـــى والـــدارِ ديّـــارُ
تـــاجُ الخلافـــة والرّبْـــعُ الـــذي شَـــرُفَتْ بـــه المعـــالمُ قـــد عَفّـــاه إقفـــارُ
أضـــحى لعَطْـــفِ البِلَـــى فـــي رَبْعـــه أثـــرٌ وللـــدُّموع علـــى الآثـــارِ آثـــارُ
يـــا نـــارَ قلبـــيَ مـــن نـــارٍ لحـــربِ وَغـــى شـــبَّتْ عليـــه ووافـــى الرّبْـــعَ إعصـــارُ
عـــلا الصـــليبُ علـــى أعلـــى منابرهـــا وقـــام بـــالأمر مَـــن يَحْوِيـــهِ زُنَّـــارُ[118]

فضلاً عن ذلك تأسفوا على كنوزها التي أصبحت نهباً رخيصاً بيد طائفة ظالمة حاقدة لا رحمة في قلوب أفرادها ولا عطف.

قال تقي الدين بن أبي اليسر: [البسيط]

وكم بُدورٍ على البَدْرِيَّة انخسفتْ ... ولم يَعُد لبدور منه إبدارُ
وكم ذخائر أضحتْ وهي شائعةٌ ... من النِّهاب وقد حازتْه كُفارُ
وكم حدودٍ أقيمت من سيوفهمُ ... على الرِّقاب وحُطَّتْ فيه أوزارُ
ناديتُ والسَّبْيُ مهتوكٌ يَجُرّهُمُ ... إلى السفاح من الأعداء دُعّارُ[119]

وفي لوحة أخرى من القصيدة، يرسم تقي الدين بن أبي اليسر، بأدواته الشِّعرية آثار القتل والأسر والسلب والنهب، الذي انتشر في بغداد، برعاية التتار في صورة حزينة مظلمة موحية لآثار الظلم، الذي وقع على بني العباس؛ إذ صوّر سوق آل النبي وأهل العلم للموت، فمن بعدهم يتمنى العيش والبقاء، فلا أمل للحياة دونهم، بقوله:

[البسيط]

وهم يُساقُون للموت الذي شَهِدوا ... النار يا ربِّ من هذا ولا العارُ
يا للرِّجالِ بأحداث تحدّثَنا ... بما غدا فيه إعذارٌ وإنذارُ
من بعد أَسْرِ بني العبّاسِ كُلّهِمِ ... فلا أَنارَ لوجه الصُّبْح إسفارُ
ما راق لي قطُّ شيء بعد بَيْنِهِم ... إلا أحاديثُ أَرْوِيها وآثارُ
لم يبقَ للدِّين والدنيا وقد ذَهبوا ... سوقٌ لمجدٍ وقد بانوا وقد باروا
إنّ القيامة في بغدادَ قد وُجِدتْ ... وحدّها حين للإقبال إدبار
آل النبيّ وأهل العلم قد سُبِيُوا ... فمَنْ ترى بعدهم تَحْوِيه أمصارُ
ما كنتُ آملُ أن أبقى وقد ذهبوا ... لكن أَبَى دون ما اختار أقدارُ[120]

وقد صوّر الشعراء مأساة بغداد، وعبروا عن مشاعرهم الحزينة، "وصوروا الجرائم التي اقترفها المغول في بغداد من قتل، ونهب، وسبي، وتدمير، ووصفوا ما حل ببني العباس فيها، وتحدثوا عن أحلاف المغول وما ارتكبوه فيها من فضائح"[121].

هذا وقد صور الشّاعر شمس الدين الكوفي الواعظ (ت 675هـ) أحداث بغداد المروعة، بقوله:

[البسيط]

بانوا ولي أدمع في الخدِّ تشتبك ... ولوعة في مجال الصدر تعتركُ
يا نكبة ما نجا من صرفها أحد ... من الورى فاستوى المملوك والملكُ[122]

أما المدن الشّامية فقد صوّر الشّاعر المملوكي اجتياح المغول لحواضرها، وقد ارتكب فيها هولاكو(ت 664هـ) أعمالاً وحشية، "فإنّه لا زال [123] يأخذ بلداً بعد أخرى إلى أن استولى على حلب والشام"[124].

ومن الملاحظ أن الشام قد سقطت للمرة الأولى عام (658هـ)، أما المرة الثانية التي سقطت فيها الشام، فقد كان ذلك في عام (699هـ) [125].

ولا شك كان من أهم الشعراء في عصر المماليك الذي صوّر الخراب ابن العديم (ت 660هـ)، فقد تأسف على تلك الحوادث التي نزلت بحلب قائلاً: [الطويل]

هو الدّهرُ ما تبنيه كفّاك يهدمُ ... وإنْ رُمْتَ إنصافاً لديه فيظلمُ
أباد مُلوك الأرضِ كسرى وقيْصراً ... وأصمتْ لدى فرسانها منهُ أسْهُمُ
وَمُلك بَني العبّاسِ زال ولم يَدَعْ ... لهمْ أثراً من بعدهم وهُمْ هُمُ

إلى أن يقول:

وعن حَلَبٍ ما شِئْت قُل من عجائبٍ ... أحلَّ بها يا صاح إن كُنت تَعلمُ
فيا لك من يومٍ شديدٍ لغامه ... وقد أصبحتْ فيه المساجدُ تُهدَمُ[126]

ولابن العديم، لمّا مرّت به التَّتار على حلب وهي خاويةٌ على عُروشها وقد تهدّمت والنّيران بها تعْمل، فقال:

[الطويل]

يَعــزَّ علينــا أن نَــرَى رَبْعكُــمْ يَبْلَــى وكانــت بــه آيــاتُ حُســنِكُمُ تُتْلَــى[127]

وفي سقوط دمشق وخرابها على أيدي التتار، قال علاء الدّين البهائي الغزولي(ت 815 هـ):

[الكامل]

أعروســنا لــك أســوة بحماتنــا فــي ذا المصــاب فأنتمــا أختــان
غابــت بــدور الحســن عــن هالاتهــا فاســتبدلت مــن عزهــا بهــوان
ناحــت نــواعير الريــاض لفقــدهم فكأنهــا الأفــلاك فــي الــدوران[128]

ومعنى هذا أن الشّاعر المملوكي صوّر لوعته لتلك المدن التي سقطت بيد الأعداء؛ إذ هجرها وقد عضّت على أنياب الحرب بثغرها، شائباً من أهوال برّها وبحرها، مصوراً الشوق ممتزجاً مع البكاء، واصفاً مرارة الهجر لتلك المدن، وقد عبر ابن حُجّة الحموي(ت 837 هـ) عن شوقه لطرابلس الشام ابلغ تعبير؛ إذ يقول:

[الطويل]

بِــوادي حمــاةِ الشَّــأم مــن أيْمــن الشّــطّ وحَقّــك تطــوي شــقّة الهــمّ بالبسْــطِ
بــلادٌ إذا مــا ذُقــتُ كَــوْثَر مائهــا أَهِــيمُ كــأَنِّي قــد تَمِلْــتُ بإسْــفنط

* * *

سَــقَى سَــفْحها إنْ قَــلَّ دَمْعــي ســحابَة مطنّبــة بالــدَّمْع مُنْهلّــة الــنَّقْطِ

* * *

منــازلُ أَحْبــابي ومَنْبِــت شُــعبتي وأَوْطــانْ أَوْطــارِي بهــا ورضــا سُــخْطِي
نَعِمْــتُ بهــا دَهْــراً ولكــن سُــلِبْتُه برغْمــي وهــذا الــدهر يَسْــلُبُ مــا يُعطِــي
وقــد جــاءَ شَــرْطُ البــين أنّــي أغيــب عــن حماهــا لقــد أوْفــى فُــؤُاديَ بالشَّــرطِ

* * *

وقــد صــار يمشــي الهــمّ نحــوي بســرعةٍ فيــا ليتَــه فــي مشــيهِ يُبْطِــى[129] [130]

وهكذا فقد شهد عصر المماليك اضمحلال المدن والممالك، "ومصارع أهلها أمام الغازين، ورأوا كيف تندك العروش، وتتقوض الحضارات، وتغيب شموس العز والجلال. فقد اجتاحت المآسي الفاجعة التي خلفتها تلك الحروب كل بيت، وزلزلت كل قلب، وعرف الإنسان العربي أنه مهدد بداره، وأبصر بعين الغد مصيراً أسود لا بد منه"[131].

ولم يقتصر الأمر على تصوير خراب المدن الشامية من قبل التتار حسب، فالإسكندرية هي الأخرى قد جاءت الأخبار في عام (767هـ)، بأن الصليبيين(الفرنج) قد هجموا على ثغرها "في سبعين مركباً من الأغربة الحربية، وهي مشحونة بالرجال والسلاح، وقد ملكوا الثغر... وقد لعب عساكر الفرنج في أهل المدينة بالسيف، واستشهد خلق كثير من المسلمين، وهلك من الناس ما لا يُحصى عددهم في الإزدحام عند عبور باب المدينة"[132].

وتعدّ هذه الحادثة من أشدّ الحوادث على المسلمين، وفي ذلك فقد صوّرها الشيخ شهاب الدين ابن أبي حجلة(ت 776 هـ)، بقوله:

[الطويل]

ألا فــي ســبيل الله مــا حَــلَّ بــالثّغر عَلَــى فِرقَــة الإســلام مــن عصــبة الكفــر
أتاهــا مــن الإفــرنج ســبعون مركبــا وحاطــت بهــا الفرســان فــي البــرّ والبحــر
وصــيّر منهــا أزرق البحــر أســودا بنــو الأصــفر البــاغون بــالبيض والسُّــمر
أتــوا أهلهــا هجمــا علــى حــين غفلــة وبــاعهم فــي الحــرب يقصــر عــن فتــر
فكــم مــن فقيــر عــاش فيهــا مــن الغِنَــى وكــم مِــن غَنِــيّ مــات فيهــا مــن الفقــر
نثــرت دمــوعي يــوم فــرط نظــامهم فيــا ليــت شــعري مــن يــبلّغهم نثــري[133]

وفي السّياق نفسه، فقد بكى ابن إياس الحنفي، على ما وقع من الحوادث بالديار المصرية؛ إذ أطاح بحكمها السّلطان العثماني سليم الأول عام (923هـ)، قائلاً:

نوحوا على مصر لأمر قد جرى ... من حادث عمّت مصيبته الورى
زالت عساكرها من الأتراك في ... غمض العيون كأنها سنة الكرى
وأتى إليها عسكر سيماهم ... حلق الذقون ولبس طرطور يُرى

* * *

لهفي على الأبواب كيف تكسّرت ... وخلت أماكنها وصاحبها سرا

* * *

لهفي على شيخو وجامعه الذي ... قد كان للصلوات مجتمع الورى
درست معالمه بحرق صار من ... بعد التزخرف والرياضة أغبرا
لهفي على سوق الصليبة كيف قد ... أخلت حوانيت به مما جرى

* * *

زالت محاسن مصر من أشياء قد ... كانت بها تزهو على كل القرى
لهفي على الأُمراء كيف تشتّتوا ... وخلت منازلهم وعادت مقفرا[134]

الخاتمة ونتائج البحث:

والآن وقد شارف البحث على الانتهاء بعد هذه الرحلة مع عناصر صورة الموت في الشِّعْر المملوكي، فقد توصل الباحث إلى نتائج عدة، يمكن تلخيصها على النحو الآتي:

- إن الشّاعر شاهد عصره؛ إذ ينقل من خلال ألفاظه وأفكاره لصورة عصره، بكل ما يضم من جوانب سياسية ودينية وفكرية وثقافية، لذا كان للشاعر المملوكي أن يقف عند عناصر صورة الموت، ومنها العناصر المادية الحسيّة.
- أستاثرت صورة الموت باهتمام شعراء العصر المملوكي؛ إذ اعتمدوا على الأسلوب الفني التصويري في بناء صورهم الشعرية، فضلاً عن نقل أفكارهم ومشاعرهم سواء أكان ذلك بالأساليب البيانية أم بالأسلوب الوصفي، فجاءت صورهم مادية حسية تنبض بالحيوية والحركة، مجسّدة عصرهم في بيئاته المختلفة.
- يتبين من البحث أن أغلب الصّور، التي جاء بها الشعراء تقليدية لا جديد فيها، سوى بعض الصّور التي جاءت هنا وهناك.
- حظيت صورة الفَقْد الحسيّة باهتمام الشاعر المملوكي؛ إذ جسّد الشاعر فقد المرْء، مصوراً مكانته في أعماق النفس، وواصفاً شدة حزنه وتأسفه.
- تجلّت صورة الفَقْر الحسيّة في شعرهم، وقد أضحى الفقر العنوان الرئيس للشعراء؛ لأن الفقر يقود إلى الفاقة والعوز، وهو بحد ذاته موت معنوي ان لم يؤدي إلى الموت الجسدي.
- رسم الشاعر الملوكي صورة القبر الحسيّة، فتناول حال المرْء مهما امتدّ بهِ الأمد وطال لابد يوماً من أن يفارق الحياة، والقبر من الألفاظ الدالة على الموت؛ إذ يمثل مرحلة أخرى للميت بعد موته.
- إن حتمية المشيب قدْ أبكت الشاعر المملوكي لفَقْد الشباب، فتيّقن من ضيفه الشيب بقرب النهاية للحياة؛ لأن الشيب يرتبط في وجدان المرْء بالموت، وهو نذير الموت، ومن ثمَّ استحالة عودة الشباب للمرْء.
- صوّر الشّاعر المملوكي مأساة الخَراب والجرائم التي اقترفها الأعداء في بغداد والشام ومصر، فعبّر عن مشاعره الحزينة ولوعته لتلك المدن والممالك التي سقطت بيد الأعداء، فالخَراب موت كل شيء، موت الأنسان وموت عناصر الطبيعة.

الهوامش:

1. ابن منظور(ت711هـ): لسان العرب، ج8/ مادة(موت).
2. صليبا، جميل: المعجم الفلسفي، ج2/ ص441.
3. ينظر: الهيب، أحمد فوزي:ثنائية الموت والحياة في شعر أبي فراس الحمداني320-375هـ، ص219.
4. بدوي، عبدالرحمن: الموت والعبقرية، ص18.
5. ينظر: عبدالخالق، أحمد محمد: قلق الموت، ص12.
6. ينظر: إبراهيم ، زكريا: مشكلة الحياة، ص160.
7. بدوي، عبدالرحمن : الموت والعبقرية، ص17.
8. عبدالخالق، أحمد محمد: قلق الموت، ص38.
9. ينظر: إبراهيم، زكريا: مشكلة الحياة، ص161.

10. إبراهيم، زكريا: مشكلة الإنسان، ص115.
11. البطل ، علي: الصّورة في الشِّعر العربي حتى آخر القرن الثاني الهجري، ص30.
12. الفراهيدي، الخليل بن أحمد : كتاب العين، ج 3 / مادة (فقد).
13. الجوهري، إسماعيل بن حمّاد: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، ج 2 / مادة (فقد).
14. ابن منظور: لسان العرب، ج 7 / مادة (فقد). وينظر: الفيروزآبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب: القاموس المحيط، مادة (فقد). وينظر: الزّبيدي، مُرتضى: تاج العروس من جواهر القاموس، ج 8 / مادة (ف ق د).
15. مَجْمع اللغة العربية بمصر: المعجم الوسيط، مادة (فقد).
16. محمود، مصطفى: لغز الموت، ص 10.
17. إبراهيم، زكريا: مشكلة الحياة، ص 174.
18. ينظر: محمود، مصطفى: ماذا وراء بوابة الموت؟، ص 23.
19. المُشِدّ، سيف الدين: الديوان، ص 95.
20. عبد الرحيم، رائد مصطفى حسن: فن الرثاء في الشعر العربي في العصر المملوكي الأول، ص 24.
21. الأنصاري، الصّاحب شرف الدين:الديوان ، ص 310 – 311.
22. التلّعفريّ، شهاب الدين: الديوان، ص 354.
23. ابن الظّهير: الديوان، ص 161 – 162.
24. الجزّار، أبو الحسين: الديوان، ص 41.
25. ابن تميم، مُجير الدين: الديوان ، ص 25.
26. ابن النّقيب: الديوان ، ص 161.
27. البُوصيري: الديوان، ص 33 – 34.
28. العزازي، شهاب الدين: الديوان، ص 67.
29. الحلّي، صفي الدين: الديوان، ص 284.
30. الصّفدي، صلاح الدين: جنان الجناس، ص 113.
31. ابن نباتة: الديوان، ص 516.
32. ابن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور،ج 1 / ق 2، ص 472.
33. ابن حجر: الديوان، ص 114 – 115.
34. السيوطي، جلال الدين: حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، ج 1/ ص 310. وينظر: ابن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج 2 / ص 269.
35. السّيوطي، جلال الدين: حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، ج 1 / ص 310. وينظر: ابن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج 2 / ص 269.
36. خلل عروضي في عجز البيت الشعري.
37. ابن مليك: ديوان النفحات الأدبية من الزهرات الحموية ، ص 261.
38. النبأ: 40.
39. ابن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج 4 / ص 71.
40. الفراهيدي، الخليل بن أحمد: كتاب العين، ج 3 / مادة (فقر).
41. الجوهري، إسماعيل بن حمّاد: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، ج 2 / مادة (فقر).
42. ابن منظور: لسان العرب، ج 7 / مادة (فقر). وينظر: الفيروزآبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب: القاموس المحيط، مادة (فقر). وينظر: الزّبيدي، مُرتضى: تاج العروس من جواهر القاموس، ج 13 / مادة (ف ق ر). وينظر: مَجْمع اللغة العربية بمصر: المعجم الوسيط، مادة (فقر).
43. الجرجاني، الشريف علي بن محمد: كتاب التعريفات، ص 138.
44. ينظر: سلام، محمد زغلول: الأدب في العصر المملوكي، ج 1 / ص 95 – 96.
45. ينظر: محمد، محمود سالم: أدب الدول المتتابعة- الدولة المملوكية، ص 136. وينظر: الحسين، قصي: الأدب العربي في العصرين المملوكي والعثماني، ص 63.
46. ابن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج 1 / ق 1، ص 390 – 391.
47. الأيوبي، ياسين: آفاق الشعر العربي في العصر المملوكي، ص 307.
48. المُشِدّ، سيف الدين: الديوان، ص 62.
49. الجزّار، أبو الحسين: الديوان، ص 25.
50. نفسه، ص 55.
51. نفسه، ص 65.
52. ابن تميم، مُجير الدين: الديوان ، ص 57.
53. ابن النّقيب: الديوان ، ص 96.
54. البُوصيري: الديوان ، ص 106.

55. ينظر: أبو علي، نبيل خالد: البُوصيري شاهد على العصر المملوكي ، ص 56.
56. البُوصيري: الديوان ، ص 106.
57. نفسه، ص 106.
58. ابن دقيق: حياته وديوانه، ص 158.
59. ابن دانيال، شمس الدين محمد: المختار من شعر ابن دانيال، ص 249.
60. الحلّي، صفي الدين: الديوان، ص 480.
61. ابن نباتة: الديوان، ص 426.
62. نفسه، ص 80.
63. ابن مليك: ديوان النفحات الأدبية من الزهرات الحموية، ص 103.
64. الفراهيدي، الخليل بن أحمد: كتاب العين، ج 3 / مادة (قبر).
65. الجوهري، إسماعيل بن حمّاد: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، ج 2 / مادة (قبر).
66. ابن منظور: لسان العرب، ج 7 / مادة (قبر). وينظر: الفيروزآبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب: القاموس المحيط، مادة (قبر). وينظر: الزّبيدي، مُرتضى: تاج العروس من جواهر القاموس، ج 13 / مادة (ق ب ر). وينظر: مَجْمع اللغة العربية بمصر: المعجم الوسيط، مادة (قبر).
67. التكاثر: 1 – 2.
68. الشعراوي، محمد متولي: الحياة والموت ، ص 49.
69. النور: 39.
70. ابن الظهير: الديوان، ص 77.
71. الجزّار، أبو الحسين: الديوان، ص 53.
72. ابن تميم، مُجير الدين: الديوان، ص 14.
73. أبو العتاهية (ت 211هـ): الديوان، ص 186.
74. السّروجي، تقيّ الدين: الديوان، ص 56.
75. العزازي، شهاب الدين: الديوان ، ص 187.
76. ابن الوردي، عمر بن مظفر: الديوان، ص 186.
77. الحلّي، صفي الدين: الديوان ، ص 284.
78. ابن نباتة: الديوان ، ص 466. وينظر: نفسه، ص 461.
79. عبد الرحيم، رائد مصطفى حسن: فن الرثاء في الشعر العربي في العصر المملوكي الأول ، ص 153.
80. ابن حجر: الديوان، ص 109.
81. ابن سودون: ديوان نُزهة النفوس ومُضحك العبوس، ص 83.
82. ابن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج 2 / ص 402.
83. ابن مليك: ديوان النفحات الأدبية من الزهرات الحموية، ص 301.
84. ابن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج 3 / ص 403.
85. ينظر: عبد الرحيم، رائد مصطفى حسن: فن الرثاء في الشعر العربي في العصر المملوكي الأول، ص 152 – 155.
86. الفراهيدي، الخليل بن أحمد: كتاب العين، ج 2 / مادة (شيب).
87. الجوهري، إسماعيل بن حمّاد: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، ج 1 / مادة (شيب).
88. ابن منظور: لسان العرب ، ج 5 / مادة (شيب). وينظر: الفيروزآبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب: القاموس المحيط، مادة (شيب). وينظر: الزّبيدي، مُرتضى: تاج العروس من جواهر القاموس، ج 3 / مادة (ش ي ب). وينظر: مَجْمع اللغة العربية بمصر: المعجم الوسيط، مادة (شيب).
89. الأبشيهي، شهاب الدّين محمد (ت 850هـ): المُستطرف في كُلّ فنٍّ مُستَظرف، ج 2/ ص 6.
90. النعيمي، أحمد إسماعيل: الشيب وبكاء الشباب في الشعر الجاهلي، ج 2 / ص 162.
91. ينظر: محجوب، فاطمة: قضية الزمن في الشعر العربي الشباب والمشيب، ص 43 – 44.
92. المُشِدّ، سيف الدين: الديوان، ص 123.
93. الأنصاري، الصَّاحب شرف الدّين: الديوان، ص 454.
94. التلّعفريّ، شهاب الدين: الديوان، ص 170.
95. ابن لؤلؤ، يوسف: الديوان، ص 111.
96. ابن تميم، مُجير الدّين: الديوان، ص 52. وينظر: نفسه، ص 14، 19، 59، 68.
97. ابن النّقيب: الديوان، ص 140. وينظر: نفسه، ص 65، 67، 75، 115، 151، 185.
98. الشّاب الظّريف: الديوان ، ص 336.
99. البُوصيري: الديوان ، ص 66. وينظر: نفسه، ص 36، 42، 166، 193.
100. الفحل، علقمة بن عبدة(ت 20 ق.هـ): الديوان، ص 25.
101. العزازي، شهاب الدين: الديوان، ص 315. وينظر: نفسه، ص 321.

102. ابن دانيال، شمس الدين محمد: المختار من شعر ابن دانيال، ص 207. وينظر: نفسه، ص 165، 181، 208، 212.
103. ابن حجر: الدُّرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ج 2 / ص 193.
104. نفسه، ج 4 / ص 277.
105. ابن الوردي، عمر بن مظفر: الديوان، ص 159. وينظر: نفسه، ص 132، 225، 232، 234، 249.
106. الحلّي، صفي الدين: الديوان، ص 165. وينظر: نفسه، ص 70، 168، 178، 181، 222، 234، 290، 401، 405، 422، 453، 507.
107. الصّفدي، صلاح الدين: الغيثُ المسجم في شرح لامية العجم، ج 1 / ص 124.
108. ابن نباتة: الديوان، ص 23. وينظر: نفسه، ص 28، 37، 43، 53، 59، 63، 66، 74، 90، 92، 104، 168، 180، 194، 195، 196، 200، 210، 225، 266، 293.
109. الصّفدي، صلاح الدين: الحانُ السواجع بين البادئ والمراجع، ج 2 / ص 177.
110. ابن حجر: الديوان، ص 132.
111. أبو العتاهية: الديوان، ص 23.
112. ابن مليك: ديوان النفحات الأدبية من الزهرات الحموية، ص 229.
113. الفراهيدي، الخليل بن أحمد: كتاب العين، ج 1 / مادة (خرب).
114. الجوهري، إسماعيل بن حمّاد: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، ج 1 / مادة (خرب).
115. ابن منظور: لسان العرب، ج 3 / مادة (خرب). وينظر: الفيروزآبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب: القاموس المحيط، مادة (خرب). وينظر: الزّبيدي، مُرتضى: تاج العروس من جواهر القاموس، ج 2 / مادة (خ ر ب). وينظر: مَجْمع اللغة العربية بمصر: المعجم الوسيط، مادة (خرب).
116. رشيد، ناظم: في أدب العصور المتأخرة، ص 9.
117. ابن تغري: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج 7 / ص 47 – 48.
118. نفسه، ج 7 / ص 48.
119. نفسه، ج 7 / ص 48..
120. نفسه، ج 7 / ص 49.
121. عبد الرحيم، رائد مصطفى حسن: فن الرثاء في الشعر العربي في العصر المملوكي الأول، ص 204.
122. ابن الفوطي: الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة، ص 334.
123. كذا في النص، وصوابه: ما زال.
124. ابن تغري: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج 7 / ص 51.
125. ينظر: عبد الرحيم، رائد مصطفى حسن: فن الرثاء في الشعر العربي في العصر المملوكي الأول، ص 219 – 220.
126. ابن الوردي، عمر بن مظفر: تتمة المختصر في أخبار البشر المسمى تاريخ ابن الوردي، ج 2 / ص 208.
127. ابن تغري: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج 7 / ص 180.
128. الغزولي، علاء الدين البهائي: مطالع البدور في منازل السرور، ج 1 / ص 52.
129. خلل عروضي في عجز البيت الشعري.
130. ابن حُجّة: ثمرات الأوراق، ص 351 – 352.
131. أمين، بكري شيخ: مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني، ص 108.
132. ابن إياس: بدائعُ الزهور في وقائع الدهور، ج 1 / ق 2، ص 21 – 22.
133. نفسه، ج 1 / ق 2، ص 24.
134. نفسه، ج 5 / ص 198 – 199.

مصادر البحث ومراجعهُ

- **القرآن الكريم.**

1- إبراهيم، زكريا: مشكلة الإنسان، لا.ط، مكتبة مصر – الفجالة، القاهرة، د.ت.
2- ـــــــــــ: مشكلة الحياة، لا.ط، مكتبة مصر – الفجالة، القاهرة، 1971م.
3- الأبشيهي، شهاب الدين محمد(ت850هـ): المُستطرف في كُلّ فنٍّ مُستَظرف، لا.ط، منشورات دار ومكتبة الحياة، بيروت، 2011م.
4- ابن إياس الحنفي(ت 930هـ): بدائعُ الزهور في وقائع الدهور، حقّقها وكتب لها المقدمة محمد مصطفى، سلسلة النشرات الإسلامية(5)، توزيع مؤسسة الريان، المعهد الألماني للأبحاث الشرقية، بيروت، 2010م.
5- ابن تغري بردي(ت 874هـ): النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، قدّم له وعلق عليه محمد حسين شمس الدين، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت ، 1992م.
6- ابن تميم، مُجير الدين (ت 684هـ) : الديوان، حققه هلال ناجي، وناظم رشيد، ط1، عالم الكتب ، بيروت،1999م.
7- ابن حُجّة الحموي(ت 837هـ): ثمرات الأوراق، تحقيق وتعليق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط3، دار الجيل، بيروت، 1997م.

8- ابن حجر العسقلاني(ت852هـ): الدُّرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ضبطه وصححه عبدالوارث محمد علي، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت،1997م.
9- ـــــــــــــــ: الديوان ، لا.ط ، حيدر آباد الدكن – الهند،1962م.
10- ابن دانيال، شمس الدين محمد (ت 710هـ): المختار من شعر ابن دانيال، اختيار صلاح الدين خليل بن أيبك الصّفدي، حققه وعلق عليه واستدرك محمد نايف الدليمي، لا.ط، مكتبة بسام، الموصل- العراق،1979م.
11- ابن دقيق العيد(ت 702هـ): حياته وديوانه، جمع ودراسة علي صافي حسين، لا.ط، دار المعارف، مصر، 1960م.
12- ابن سودون البشبغاوي(ت 868هـ): ديوان نُزهة النفوس ومُضحك العبوس، تحقيق منال محرم عبدالمجيد، مراجعة حسين نصار، ط2، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، 2010م.
13- ابن الظهير الإربلي(ت 677هـ) : الديوان ، جمع وتحقيق وشرح ودراسة عبدالرازق حويزي، لا.ط، مكتبة الآداب، القاهرة ، 2006م.
14- ابن فضل الله العمري(ت749هـ): مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق محمد عجاج الخطيب وآخرين، لا.ط، دار الكتب الوطنية، أبو ظبي، 2004م.
15- ابن الفوطي البغدادي (ت723هـ): الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة، تحقيق مصطفى جواد، لا.ط، مطبعة الفرات، بغداد، 1923م.
16- ابن لؤلؤ الذهبي، يوسف(ت 680هـ): الديوان، جمع وتحقيق ودراسة عباس هاني الجراخ، ط3، منشورات دار الفرات للطباعة، بابل – العراق، 2008م.
17- ابن مليك الحموي(ت917هـ): ديوان النفحات الأدبية من الزهرات الحموية، تقديم وتحقيق إسراء أحمد فوزي الهيب، لا.ط، وزارة الثقافة- الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، 2010م.
18- ابن منظور (ت 711هـ): لسان العرب، طبعة جديدة مصححة اعتنى بتصحيحها أمين محمد عبدالوهاب، ومحمد الصادق العبيدي، ط1، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 2010م.
19- ابن نباتة المصري(ت 768هـ): الديوان ،لا.ط، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ت.
20- ابن النّقيْب الفقيسيّ (ت 687هـ): الديوان، جمع وتحقيق ودراسة عباس هاني الجراخ،ط1، دار تموز للطباعة والنشر، دمشق، 2012م.
21- ابن الوردي، عمر بن مظفر(ت 749هـ): تتمة المختصر في أخبار البشر المسمى تاريخ أبن الوردي، لا.ط، دار الكتب العلمية، بيروت، 1996م.
22- ـــــــــــــــ: الديوان، تحقيق عبدالحميد هنداوي، ط1، دار الآفاق العربية، القاهرة ، 2006م.

23- أبو العتاهية (ت 211هـ): الديوان، ط4، دار الكتب العلمية، بيروت، 2004م.
24- أبو علي، نبيل خالد: البُوصيري شاهد على العصر المملوكي، ط4، دار المقداد للطباعة، غزة- فلسطين، 2005م.
25- أمين ، بكري شيخ: مُطالعات في الشعر المملوكي والعثماني، لا.ط، دار العلم للملايين، بيروت، د.ت.
26- الأنصاري، الصاحب شرف الدين(ت 662هـ): الديوان، عُني بتحقيقه عمر موسى باشا،لا.ط، المطبعة الهاشمية، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، 1967م.
27- الأيوبي، ياسين: آفاق الشعر العربي في العصر المملوكي، ط1، دار جروس برس، طرابلس- لبنان، 1995م.
28- بدوي، عبدالرحمن: الموت والعبقرية، لا.ط،وكالة المطبوعات – الكويت، ودار القلم – بيروت،1945م.
29- البطل، علي: الصّورة في الشِّعر العربي حتى آخر القرن الثاني الهجري،ط1، دار الأندلس، بيروت، 1980م.
30- البُوصيري(ت 696هـ): الديوان، قدّم له وشرحه أحمد حسن بسبح،ط2، دار الكتب العلمية، بيروت، 2005م.
31- التلّعفريّ، شهاب الدين(ت675هـ): الديوان، حققه وقدّم لهُ رضا رجب ،ط2، دار الينابيع، دمشق، 2004م.
32- الجرجاني، الشريف علي بن محمد(ت 816هـ): كتاب التعريفات،ط1، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 2003م.
33- الجزّار، أبو الحُسين(ت 679هـ): الديوان، تحقيق وتقديم ودراسة محمد زغلول سلام، لا.ط، منشأة المعارف، الإسكندرية – مصر، د.ت.
34- الجوهري، إسماعيل بن حمّاد(ت 393هـ): الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق احمد عبدالغفور عطار، ط4، دار العلم للملايين،بيروت، 1990م.
35- الحسين، قصي: الأدب العربي في العصرين المملوكي والعثماني، ط1، المؤسسة الحديثة للكتاب، بيروت، 2011م.
36- الحلّي، صفي الدين(ت 750هـ): الديوان، شرحه وضبط نصوصه وقدّم له عمر فاروق الطبّاع،ط1، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، 1997م.
37- رشيد، ناظم : في أدب العصور المتأخرة، لا.ط، منشورات مكتبة بسام، الموصل – العراق، 1985م.
38- الزَّبيدي، مُرتضى(ت 1205هـ): تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق مجموعة من المحققين، لا.ط، سلسلة التراث العربي تصدرها وزارة الإعلام، الكويت، 1993م.
39- السّروجي، تقي الدين(ت693هـ): الديوان، عُني بجمعه وتحقيقه ودراسته عباس هاني الجراخ، ط1، دار صادر، بيروت، 2014م.
40- سلام، محمد زغلول: الأدب في العصر المملوكي،ط1، منشأة المعارف، الإسكندرية – مصر، 1999م.

41- السّيوطي، جلال الدين(ت 911هـ): حُسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، وضع حواشيه خليل المنصور،ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1997م.
42- الشّاب الظّريف (ت 688هـ): الديوان، قدّم له وشرحه ووضع فهارسه صلاح الدين الهواري،لا.ط، دار الكتاب العربي، بيروت، 2004م.
43- الشعراوي، محمد متولي: الحياة والموت، لا.ط، مكتبة الشعراوي الإسلامية، القاهرة،د.ت.
44- الصّفدي، صلاح الدين(ت 764هـ): جنان الجناس، حققه على نسخة فريدة هلال ناجي، مجلة الذخائر، مجلة فصلية محكمة تُعنى بالآثار والتراث والمخطوطات والوثائق، العدد4، السنة الأولى، بيروت، خريف 1421هـ- 2000م.
45- ـــــــــــــ:الحانُ السواجع بين البادئ والمراجع، تحقيق محمد عايش، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت،2007م.
46- ـــــــــــــ: الغيثُ المسجم في شرح لامية العجم، ط3، دار الكتب العلمية ، بيروت، 2003م.
47- صليبا ، جميل: المعجم الفلسفي، لا.ط، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1982م.
48- عبدالخالق، أحمد محمد: قلق الموت، سلسلة عالم المعرفة(111) يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت،1987م.
49- عبدالرحيم، رائد مصطفى حسن: فن الرثاء في الشِّعْر العربي في العصر المملوكي الأول،ط1، دار الرازي للطباعة والنشر والتوزيع، عمّان – الأردن، 2003م.
50- العزازي، شهاب الدين(ت 710هـ): الديوان، حققه وقدّم له رضا رجب،ط1، دار الينابيع، دمشق، 2004م.
51- الفحل، علقمة بن عبدة(ت 20 ق.هـ) : الديوان، شرح الأعلم الشنتمري، تحقيق حنا نصر الحتي، ط1، دار الكتاب العربي، بيروت، 1993م.
52- الفراهيدي، الخليل بن أحمد(ت 170هـ): كتاب العين، ترتيب وتحقيق عبدالحميد هنداوي ، ط1، دار الكتب العلمية ، بيروت، 2003م.
53- الفيروزآبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب(ت 817هـ): القاموس المحيط، إعداد وتقديم محمد عبدالرحمن المرعشلي، ط2، إحياء التراث العربي، بيروت، 2003م.
54- مَجْمع اللغة العربية بمصر: المعجم الوسيط ،ط4، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، 2004م.
55- محجوب، فاطمة: قضية الزمن في الشعر العربي الشباب والمشيب، لا.ط، دار المعارف، القاهرة، 1980م.
56- محمد، محمود سالم: أدب الدول المتتابعة – الدولة المملوكية، ط1، دار الكتب الوطنية، أبو ظبي، 2012م.
57- محمود، مصطفى: لغز الموت، لا.ط، دار العودة، بيروت، 1972م.
58- ـــــــــــــ: ماذا وراء بوابة الموت؟ ، لا.ط، دار أخبار اليوم، القاهرة، 1999م.
59- المُشِدّ، سيف الدين(ت 656هـ): الديوان، تحقيق وتقديم محمد زغلول سلام،ط1، منشأة المعارف، الإسكندرية – مصر، د.ت.
60- النعيمي ، أحمد إسماعيل: الشيب وبكاء الشباب في الشعر الجاهلي، مجلة المجمع العلمي العراقي، مجلة فصلية، مج 53، بغداد ، 2006م.
61- الهيب، أحمد فوزي: ثنائية الموت والحياة في شعر أبي فراس الحمداني320 – 375هـ، مجلة التراث العربي تصدر عن اتحاد الكّتاب العرب، العدد 105 ، السنة27، كانون الثاني 2007م.